١٠٧٥

دار م. النحاس

كبير

1075

HARLEQUIN

في قلبي رغم الجميع

آن ميذر

في قلبي رغم الجميع

آن ميذر

كان ريف ليندسي، إيرل أوف إنفركالدي مالك الأراضي. ولكن الأيام التي كان فيها للنبيل الحق في الزواج من أية فتاة تعجبه في قريته، تلك الأيام قد غيبها الزمن. ولكن ريف لم يكن يدري بهذا.

ولكن إيزوبيل جاكوبسن كانت أرملة تكافح وحدها في تربية إبنة مراهقة غير منضبطة.

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

STRANGE INTIMACY

الفصل الأول

لم تكن إيزوبيل متأكدة متى بالضبط أدركت غلطتها.

لقد كانت الشكوك ساورتها، في البداية، بالطبع، ولكنها استطاعت أن تتغلب عليها. فقد كان انتقالها من شقة في حي إيرلس كورت في لندن محيطها الذي ألفته، إلى أعالي جبال سكوتلندا، كان انتقالها ذاك خطوة جريئة في الحقيقة. حتى ولو كان ذهابها بناءً على دعوة من صديقة. حتى ولو كانت هناك وظيفة في انتظارها ملحق بها بيت مريح.

أما رأي ابنتها كوري بها، فهو أنها مجنونة، وربما كان هذا رأي أمها نفسه حتى دون اعتبار لشكوى ابنتها ذاك المستمر. ولكن، بالرغم من الرأي الشائع، فقد كان لموقف كوري نتيجة واحدة، وهي اقتناع أمها بأن ما تقوم به هو الصواب. ذلك أن كل ما يساعد على انفصال ابنتها ذات الثلاثة عشر ربيعاً عن تأثير تلك المجموعة الضالة في مدرستها، لا بد أن يكون صواباً.

ومع ذلك، فقد واجهت إيزوبيل متاعب هذا الانتقال بشيء من الهلع. وفي الحقيقة، لقد واجهت اكثر المشكلات التي صادفتها، منذ وفاة زوجها ادوارد، بمثل هذا الشعور. لأنه كان أثناء حياته، يصر دائماً، على اتخاذ القرارات نيابة عنها. لهذا كان استئصال نفسها وابنتها كوري من البيت الوحيد الذي عرفته في حياتها، كان هذا يمثل بالنسبة إليها مشروعاً بالغ الضخامة.

ولكن، في ذلك الحين، لم يكن أحد يتوقع موت ادوارد. فقد كان في الخامسة والأربعين من عمره فقط، فهو كان يحافظ على صحته ولا يقترب حتى من التدخين. فقد كان من أركان مجتمعه. وحين فتحت إيزوبيل موضوع امكانية انتقالها إلى اسكوتلندا اعلنت والدته، دون تردد، ان من المؤسف ان إيزوبيل لم تكن هي التي كانت تقود السيارة عند وقوع الحادث حين سحق الونش رافع السيارات، السيارة التي كانت وزوجها، تستقلانها ما تسبب عنه مقتل ادوارد وخروجها هي برضوض طفيفة. ذلك أن ادوارد، حسب قول والدته، كان أمامه الكثير ليقوم به في الحياة، بينما هي لم تحاول حتى مشاركته أحلامه وطموحاته الخاصة.

وقد اعترفت إيزوبيل، إنما بينها وبين نفسها، أن هذا صحيح. وهو ما عنفت نفسها لأجله مراراً منذ موت ادوارد. كانت إيزوبيل قد أمضت طفولتها في الأسفار مع أبيها متنقلين بين أجزاء العالم القاحلة المجدبة.

وعلى كل حال، كانت لادوارد وجهة نظر مختلفة، رغم أنه، عند زواجهما، كان قد طمأنها إلى أنه لن يرغمها على القيام بأي شيء. ولكن أربعة عشر عاماً، والمجادلات العديدة التي حدثت بينهما في ما بعد، جعلت إيزوبيل تتأكد من أن وعده ذاك كان هباء.

وكان هذا هو السبب الأساسي لعدم حصول التوافق بينها وبين والدته. أم أنه كان لعدم توافقهما ذاك، سبب أبعد من هذا؟ ذلك أن السيدة جاكوبسن والدته، لم تكن تريد لابنها أن يتزوج قط. فقد كانت سعيدة تماماً برعايته بنفسها وتوفير

اسباب الراحة له. أما كوري تلك اليتيمة المراهقة التي لا تملك درهماً باسمها، والتي كانت تحاول التعود على فكرة موت والدها، فهذه لم تدخل في حسابها مطلقاً.

وعند مراجعتها للماضي، كما سبق وقامت بذلك مراراً أثناء الأشهر التي تلت موت ادوارد، كان على إيزوبيل أن تعترف بأن حماتها كان لها وجهة نظر في ذلك. ربما كان كبير السن بالنسبة إليها. أو ربما كانت هي تتطلع إلى بديل لأبيها في شخصه. وعلى كل حال فقد كانت السنوات التي أمضياها معاً سعيدة في أغلبها. على الأقل تماثل سعادة أكثر اصدقائهما المتزوجين.

لقد عصف موت ادوارد المفاجيء بهن جميعاً، بما فيهن كوري التي كانت قد أمضت السنتين الأخيرتين من حياة أبيها، وهي تقوم بكل ما من شأنه بعث الخيبة إلى نفسه، ذلك أنها منذ تركت المدرسة الخاصة، التي كانت جدتها السيدة جاكوبسن قد أصرت على وضعها فيها، لتتابع دراستها في المدرسة المحلية الرسمية، منذ ذلك الحين أصبحت الفتاة الصغيرة تمثل مشكلة لذويها. وبطبيعة الحال، زعمت والدة ادوارد أن ذلك كان نتيجة لحرمان أمها إيزوبيل لها من هويتها، وذلك بوضعها حيث تسير على المنهاج الدراسي للدولة. أما إيزوبيل، وكذلك ادوارد حين يكون بعيداً عن تأثير أمه، فقد كان لهما في ذلك رأي آخر.

وكان رأي إيزوبيل، إزاء تقارير ناظر مدرسة ابنتها المتكررة والتي تتحدث عن تقصيرها الدراسي، وغيابها المتعدد عن المدرسة من دون عذر، واستعمالها كلمات غير مهذبة، بما في ذلك سرقات طفيفة من الحوانيت، وكل تلك

www.liilas.com

الأشياء التي كانت كوري ترتكبها، كان رأي إيزوبيل هو أن هذا مجرد جنون.

وبدلاً من أن تحاول الصغيرة الحصول على علامات جيدة تؤهلها لدخول الجامعة، كما كانت أمها تأمل، فقد قامت بكل ما بإمكانها لكي تدخل الأسى إلى قلبي والديها. والأكثر من ذلك أنها لم تكن لتشعر بالخجل من ذلك. بل، على العكس، كانت تسر بالسمعة السيئة التي اكتسبتها من جراء ذلك.

وكان ادوارد يفكر أحياناً بأنه ربما كان عليهما أن يسمحا لوالدتها بمتابعة عونها لابنتهما في المدرسة الخاصة ولكن إيزوبيل كانت قد أقنعته بالعكس. بعد أن أثبت تدخل والدته في حياة ابنتهما فشله إزاء تحجج كوري بكلمات جدتها في كل مرة تشذ فيها عن الطريق.

وكان أن جمع بين الأم وابنتها، حزنهما المشترك لوفاة ادوارد، كما لم يحدث منذ سنوات، ما جعل لدى إيزوبيل أملاً في أن الحادث الذي أودى بحياة زوجها ربما كان قد نتج عنه خير ما. ذلك أن كوري ابتدأت تدرك كم هي قصيرة الحياة. وربما كان هذا الخير مؤكداً لو لم تعد حماتها للتدخل مرة أخرى.

قبل وفاة ادوارد، كانت إيزوبيل تقوم بوظيفة نصف دوام، وذلك في مكتب محام. ولأنها تزوجت صغيرة السن، وحملت على الفور، كان عليها أن تنتظر إلى حين دخول كوري إلى المدرسة، لكي تبدأ بأخذ دروس في مهنة السكرتاريا. ولم يكن ادوارد يريدها أن تعمل على كل حال، ولكنها لم تستطع اقناعه بالقبول إلا بعد أن ادرك ما تكلفه ملابس وأحذية ابنته من ثمن مرتفع.

وقد استمتعت إيزوبيل بالعمل، إذ لم يكن يسرّها أن تمضي أيامها في تناول القهوة مع حماتها، أو الإستماع إلى ثرثرة صديقات حماتها واغتيابهن أولئك اللواتي يتقيدن بالسير على منوالهن من ضبط السلوك. وكانت إيزوبيل واثقة بأنها هي ايضاً قد تعرضت لنفس الإنتقاد عندما ابتدأت تعمل في مكتب غوردون إيزاكس. ولكن مواعيد عملها لم تكن متشددة. وكانت دوماً موجودة عندما كانت كوري تعود من المدرسة.

وعلى كل حال، لقد غيرت وفاة إدوارد أشياء كثيرة. ففي هذا الضيق المادي الذي وجدت نفسها فيه، ادركت ان مثل هذه الوظيفة، بنصف دوام، لن تجديها شيئاً. ومبلغ التأمين لم يكد يغطي مبلغ رهن شقتهما. فماذا عن الطعام والتدفئة والنور في الوقت الذي زاد فيه التضخم فارتفعت الأسعار؟ وهكذا ادركت ضرورة حصولها على وظيفة كاملة تغطي كل هذه النفقات.

في هذه الأثناء إقترحت عليها حماتها السيدة جاكوبسن الانتقال للاقامة معها في منزلها ذي الطراز الفيكتوري في شارع سانت جونس وود والذي كان بالغ الاتساع بالنسبة إليها بمفردها، كما قالت، مضيفة أن ليس ثمة موجب يحملها على العمل في الوقت الذي كل ما تملكه هي سيؤول، بعد موتها، إلى حفيدتها كوري، على كل حال. فصحبتها ستسرها... وكذلك مساعدة كنتها لها في أعمال المنزل، فهي متأكدة من أن هذه هي رغبة ادوارد بالضبط لو أنه ما زال حياً.

عند ذلك أدرك إيزوبيل الذعر. ذلك أنها لم تستطع ان توافق على فكرة انها ستكون في ذلك المنزل مجرد خادمة

www.liilas.com

الأشياء التي كانت كوري ترتكبها، كان رأي إيزوبيل هو أن هذا مجرد جنون.

وبدلاً من أن تحاول الصغيرة الحصول على علامات جيدة تؤهلها لدخول الجامعة، كما كانت أمها تأمل، فقد قامت بكل ما بإمكانها لكي تدخل الأسى إلى قلبي والديها. والأكثر من ذلك أنها لم تكن لتشعر بالخجل من ذلك. بل، على العكس، كانت تسر بالسمعة السيئة التي اكتسبتها من جراء ذلك.

وكان ادوارد يفكر أحياناً بأنه ربما كان عليهما أن يسمحا لوالدتها بمتابعة عونها لابنتهما في المدرسة الخاصة ولكن إيزوبيل كانت قد أقنعته بالعكس. بعد أن أثبت تدخل والدته في حياة ابنتهما فشله إزاء تحجج كوري بكلمات جدتها في كل مرة تشذ فيها عن الطريق.

وكان أن جمع بين الأم وابنتها، حزنهما المشترك لوفاة ادوارد، كما لم يحدث منذ سنوات، ما جعل لدى إيزوبيل أملاً في أن الحادث الذي أودى بحياة زوجها ربما كان قد نتج عنه خير ما. ذلك أن كوري ابتدأت تدرك كم هي قصيرة الحياة. وربما كان هذا الخير مؤكداً لو لم تعد حماتها للتدخل مرة أخرى.

قبل وفاة ادوارد، كانت إيزوبيل تقوم بوظيفة نصف دوام، وذلك في مكتب محام. ولأنها تزوجت صغيرة السن، وحملت على الفور، كان عليها أن تنتظر إلى حين دخول كوري إلى المدرسة، لكي تبدأ بأخذ دروس في مهنة السكرتاريا. ولم يكن ادوارد يريدها أن تعمل على كل حال، ولكنها لم تستطع اقناعه بالقبول إلا بعد أن ادرك ما تكلفه ملابس وأحذية ابنته من ثمن مرتفع.

وقد استمتعت إيزوبيل بالعمل، إذ لم يكن يسرّها أن تمضي أيامها في تناول القهوة مع حماتها، أو الإستماع إلى ثرثرة صديقات حماتها واغتيابهن أولئك اللواتي يتقيدن بالسير على منوالهن من ضبط السلوك. وكانت إيزوبيل واثقة بأنها هي ايضاً قد تعرضت لنفس الإنتقاد عندما ابتدأت تعمل في مكتب غوردون إيزاكس. ولكن مواعيد عملها لم تكن متشددة. وكانت دوماً موجودة عندما كانت كوري تعود من المدرسة.

وعلى كل حال، لقد غيرت وفاة إدوارد أشياء كثيرة. ففي هذا الضيق المادي الذي وجدت نفسها فيه، ادركت ان مثل هذه الوظيفة، بنصف دوام، لن تجديها شيئاً. ومبلغ التأمين لم يكد يغطي مبلغ رهن شقتهما. فماذا عن الطعام والتدفئة والنور في الوقت الذي زاد فيه التضخم فارتفعت الأسعار؟ وهكذا ادركت ضرورة حصولها على وظيفة كاملة تغطي كل هذه النفقات.

في هذه الأثناء إقترحت عليها حماتها السيدة جاكوبسن الانتقال للاقامة معها في منزلها ذي الطراز الفيكتوري في شارع سانت جونس وود والذي كان بالغ الاتساع بالنسبة إليها بمفردها، كما قالت، مضيفة أن ليس ثمة موجب يحملها على العمل في الوقت الذي كل ما تملكه هي سيؤول، بعد موتها، إلى حفيدتها كوري، على كل حال. فصحبتها ستسرها... وكذلك مساعدة كنتها لها في أعمال المنزل، فهي متأكدة من أن هذه هي رغبة ادوارد بالضبط لو أنه ما زال حياً.

عند ذلك أدرك إيزوبيل الذعر. ذلك أنها لم تستطع ان توافق على فكرة انها ستكون في ذلك المنزل مجرد خادمة

دون أجر. قد تكون جاحدة أو حمقاء في ترك هذه الفرصة تفوتها، كما كانت تفكر، ولكن لم تكن هناك طريقة تجعلها تقبل هذا التدبير. ثم ان ابنتها كانت عاصية تماماً، في وضعها معها هذا، فكيف لو كانت جدتها تسندها ضدها؟ وكيف ستصبح عند ذاك؟

وكانت هذه ناحية فقط من المسألة. ذلك أن إيزوبيل كانت تعلم انها لن تستطيع أبداً أن تعيش حياتها الخاصة في ذلك البيت دون وظيفة ودون أصدقاء ودون استقلال. لن يكون لها حياة أبداً. كلا، ان هذا لا يمكن أن يحدث. كانت متأكدة من أن الجنون سينتابها عند ذاك.

وما ان كاد صبرها ينفد وهي ترى حماتها تبدأ برشوة كوري بأن تشتري لها الثياب الغالية وتأخذها في اجازة إلى اميركا وانها ستزخرف لها غرفتها الخاصة عندما تأتي للعيش معها، عند ذلك التقت ايزوبيل مصادفة بصديقتها القديمة كلير وبستر في شارع اكسفورد.

كانت كلير زميلتها في المدرسة. ذلك ان اباها، وكانت هي في الرابعة عشرة من عمرها، قد قرر أن الثقافة التي تتلقاها على يديه، حيث أنه عالم في الآثار، هي غير كافية، وهكذا أدرج اسمها في مدرسة داخلية جيدة.. في اقليم ساسكس. وكانت كلمته عند إيزوبيل قانوناً لا يتغير.

هذا إلى أن وعد أبيها لها بأنه إذا هي حازت على المؤهلات الضرورية، فسيسمح لها بالعمل معه، كان هذا الوعد حافزاً لها للجد في دراستها والاستمتاع بها. وقد وجدت في كلير صديقة طيبة، وكانت هذه ابنة جراح في لندن وكان منزله يرحب بها على الدوام.

ولكن الزمن والظروف لم تسمح لتلك الصداقة بينهما ان تستمر بعد انتهاء الدراسة. ذلك أن والد كلير كان اسكوتلندياً، ولما علم بأن أباه وهو طبيب في الأرياف، قد دخل المستشفى مريضاً، طلب الدكتور وبستر، والد كلير، نقله للعمل في مستشفى في غلاسكو في اسكوتلندا وذلك لكي يبقى بجانب والديه.

وقد حدث كل ذلك بعد أسابيع من ترك الفتاتين للمدرسة، وقبل أشهر قليلة من ذكرى مولد إيزوبيل الثامن عشر. ولكن إيزوبيل كانت قد اعدت نفسها، في ذلك الحين، للالتحاق بأبيها في أميركا الجنوبية لقضاء سنة معه تكون بمثابة دورة تعليمية وذلك قبل التحاقها بجامعة أكسفورد. وكان في لهفتها و شوقها للحياة الجديدة التي تنتظرها، ما غطى على اهتمامها لفراق كلير. ولم تدرك مبلغ العزلة التي اصبحت تكتنف حياتها، إلا بعد ان علمت بمقتل أبيها إثر انهيار صخري. لم يكن لديها اصدقاء حميمون، لا أقرباء، كما كان المال بين يديها قليلاً جداً. وفي غمرة الحزن، كان عليها أن تقبل بوظيفة في سانسبيري حيث دفنت احلام مستقبلها إلى الأبد.

وكان هذا هو السبب في أن لقاءها بكلير في شارع اكسفورد كان بمثابة بشرى بالخير. فقد مضى ما يقرب من أربعة عشر عاماً منذ آخر مرة تقابلا فيها. ومع أنهما، في البداية حرصتا على مداومة الاتصال بينهما بالمراسلة، ولكن حتى هذه العلاقة قضى عليها مرور الزمن.

لقد عرفت كلير إيزوبيل على الفور، رغم أن هذه لم تكن متأكدة من شخصيتها، ذلك أن هذه المرأة ذات الملابس

الأنيقة الغالية الثمن، والتي كانت تتحلى باللآلىء، لم تكن تشبه كثيراً تلك الفتاة المراهقة البدينة التي كانت إيزوبيل تعرفها. وكان واضحاً من مظهر كلير أنها متزوجة من رجل ثري.

كان اصرار كلير على تناول الغداء معاً في مكان ما، لكي تتمكنا من الحديث وتبادل الأخبار، قد جوبه، مبدئياً، برفض مهذب من إيزوبيل إذ كان عليها العودة إلى عملها بعد نصف ساعة، فاعتذرت لها. وكانت تستمع إليها وهذه تتحدث عن صعوبة العثور على سيارة هذه الأيام في لندن، كانت تستمع إلى ذلك بشيء من الأسى وهي تتذكر آخر مرة استعملت هي فيها اجرة. وحيث أنها كانت تتوقع لقاء عاصفاً آخر بينها وبين حماتها السيدة جاكوبسن ذلك المساء، فقد كانت متلهفة إلى تجنب تلك المواجهة بأي شكل.

ولكن كلير لم تكن بالتي تقبل كلمة كلا جواباً. وهكذا، جعلت إيزوبيل توافق على الاتصال هاتفياً بمدير العمل السيد غوردون، لتلتمس منه الإذن لها بساعة إضافية تتأخر فيها عن العمل. فقد أقنعت نفسها بأنها مناسبة خاصة، وقد يكون لدى كلير رأي ما يساعدها، هي إيزوبيل، على التخلص من براثن السيدة جاكوبسن.

وهذا ما حدث. فقد كان لدى كلير أفضل حل لمشكلاتها. ذلك ان والدها الذي كان قد تخلى عقب وفاة أبيه، عن عمله في المستشفى ليؤسس مركز وبستر الطبي في قرية إنفركالدي، كان بحاجة إلى سكرتيرة مؤهلة. وكان يستخدم، إلى وقت قريب، سكرتيرة مسنة سبق وعملت عند والده مدة أربعين عاماً. ولكن الآنسة ماكلاي قد تقاعدت

الآن وذهبت لتعيش مع شقيقتها في بلدة داندي فوظيفتها والبيت المريح الذي كانت تسكن فيه، هما الآن خاليان. وقد اكدت لها كلير أن والدها سيمنح إيزوبيل هذا العمل حالما تبلغه قبولها.

ولكن إيزوبيل لم تكن في ذلك الحين، إلى هذا الحد من الاقتناع، كانت هذه الفكرة تغيير، ليس العمل فقط، بل حياتها بأجمعها. فقد كانت فكرة مثبطة للعزم. كما أنها ارتابت في أن الأمر سيكون بهذه السهولة، وذلك رغم تطمينات كلير لها. فقد كانت إيزوبيل تعلم بالخبرة، أن العثور على الوظائف والبيوت ليس سهلاً إلى هذا الحد، خصوصاً في لندن. ذلك أن الناس يريدون مؤهلات، ومراجع للتزكية. وماذا بشأن المتقدمين الآخرين لهذه الوظيفة؟ هذا دون ذكر صاحب المنزل الذي قد يطلب تعويضاً عن اخلائه المنزل.

ولكن كلير أوقفت كل احتجاجاتها. ذلك أن قرية إنفركالدي. كانت مملوكة لأسرة زوجها كولن ليندسي كما قالت، والذي هو شقيق صاحب القرية الحالي، وفي هذه الحالة، لن يتردد في منح الوظيفة والبيت لإيزوبيل.

ومع هذا، فقد بقيت إيزوبيل على اعتراضها هذا. لقد كانت الفكرة جذابة حقاً، دون شك في ذلك. فقد بدا لها الانتقال من شوارع لندن الكئيبة إلى أعالي جبال اسكوتلندا النقية الجو، انتقالاً مذهلاً. ولكن نظرتها الواقعية إلى الأمور جعلتها ترى في العيش في محيط غير مألوف، بعيداً عن كل ما اعتادته أثناء الأربعة عشر عاماً الأخيرة، جعلتها ترى في ذلك شيئاً خيالياً، هذا إلى أنه كان عليها اعتبار

رأي حماتها. ربما لم تكن هي تحبها، ولكنها كانت جدة كوري على كل حال.

وهكذا عادت إلى عملها بعد أن وعدت كلير بأن تفكر في الأمر، وقد ساورها شعور حقيقي بالندم. كان من مصلحة كوري ان تبتعد حالاً عن تأثير محيطها غير الصالح في لندن. فقد كانت خائفة فعلاً مما عسى أن يحمله المستقبل إلى ابنتها.

ولكن، ما أن وصلت إلى منزلها ذلك المساء، حتى ضاع كل شيء. فقد دخلت إلى الشقة لترى كوري تجلس متجهمة الوجه على كرسي، بينما كانت جدتها تتحدث في الهاتف بعنف.

وعندما حاولت أن تعرف من ابنتها ما يحدث، لم تجبها هذه، وحالاً، فهمت إيزوبيل الأمر. فقد كان جلياً أن السيدة جاكوبسن كانت تتحدث إلى ناظر مدرسة كوري. وقبل أن تتمكن من السؤال عما جرى، سمعت حماتها تخبر الناظر أنها ستسحب حفيدتها من المدرسة.

عند ذلك حاولت أن تأخذ من يدها سماعة الهاتف، ولكن حماتها لم تسمح لها بذلك. وخوفاً من التسبب في عراك تنتشر أخباره في المدرسة، لم تستطع إيزوبيل إلا أن تلجأ إلى الصمت. ولكن عندما وضعت السيدة جاكوبسن السماعة من يدها وهي تعلن أن كوري ستلتحق بمدرسة البنات الخاصة في سانت جونس وود منذ الآن فصاعداً، وهذا يعني أنهما ستنتقلان إلى مورنينغتون كلوز والذي هو أفضل لهما على كل حال. عند ذلك انفجرت إيزوبيل بها.

لم تكن قد أتت على ذكر تلك الوظيفة في اسكوتلندا بعد

ظهر ذلك النهار، غير أنها، أثناء العودة إلى منزلها، قررت أن تفكر جيداً في الأمر. ولكن، وحماتها تخبرها الآن بانها هي ستستلم مسؤولية كوري لأن ليس لها هي سلطة على ابنتها، عند ذلك أدركت إيزوبيل أنه لم يعد لديها خيار آخر غير السفر.

وكان الشجار الذي تلا ذلك عنيفاً، رغم أن إيزوبيل لم تكن تريد أن يكون ذلك أمام ابنتها. ولكن ما أخبرتها به حماتها من أن ابنتها قد ضبطت وهي تستنشق الغراء، كان في هذا الخبر ما فيه الكفاية. وعندما حاولت إيزوبيل أن تخفف من انفجار الموقف، وذلك بذكر الوظيفة في قرية إنفركالدي في اسكوتلندا، عند ذلك تفوهت والدة ادوارد بتلك الكلمات الوقحة عن موت ادوارد. لقد كانت تعلم أن السيدة جاكوبسن تعتبرها الملومة في ذلك الحادث الذي تسبب في مقتل ابنها، أليس في هذا ما يكفي، حتى تجيء الآن وتقول انها كانت تفضل لو كانت هي، إيزوبيل التي ماتت وليس ادوارد؟

وهكذا، بالرغم من دموع كوري، واتهامات السيدة جاكوبسن، اتصلت ايزوبيل بكلير في فندق كلاريدج ومن ثم اخبرتها بقبولها للوظيفة. وقد أسعدها أن تعلم أن والدها الدكتور وبستر سر كثيراً إذ علم بقرب لقائها مرة أخرى. وعندما استقلتا قطار غلاسكو بعد ذلك ثلاثة أسابيع، اطمأنت إيزوبيل إلى أنها اتخذت القرار الصحيح. خصوصاً وأن بإمكانها إذا لم يعجبها الحال، أن تعود إلى لندن، ومن ثم تبدأ من جديد.

وفي البداية، والقطار يتجه شمالاً مخترقاً ريف انكلترا،

حيث كانت شمس أيلول (سبتمبر) تدفىء المنطقة على غير العادة، كان بإمكان إيزوبيل أن تتجاهل وجه ابنتها المكتئب، لتستمتع بهذه الرحلة. وكانت اعتادت، قبل وفاة والدها، أن تمضي حياتها في التنقل بين مختلف البلدان.

كما أن هذا سيكون في صالح كوري التي عدا عن اجازتين ذهبت أثناءهما إلى فرنسا، لم تقم بأية اسفار في حياتها. في الواقع، لم تكن تعرف شيئاً عن انكلترا، فكيف عن اسكوتلندا. وقد حان الوقت لكي تعرف أن لندن ليست هي مركز العالم.

وعندما ابتدأ القطار يخترق ضواحي غلاسكو، ابتدأت إيزوبيل في الاقتناع بأنها، رغم كل شيء، ليست واثقة من أنها قامت بالعمل الصواب. وعندما وصل بهما إلى وسط غلاسكو، تأكدت من غلطتها. وكانت كوري قد اضربت عن الحديث معها طوال الرحلة، إلا في ما ندر وفي حالة تكلمت معها أمها أولاً، ذلك أن الدموع والغضب اللذين أطلقت لهما العنان، لكي تجعل أمها تغير رأيها، قد جعلاها تخلد إلى حزن صامت. وفي كل مناسبة، كانت تقول بأنها لن تقبل ابداً بهذا المجتمع الضيق الذي ستعيش فيه في تلك القرية الصغيرة، وأنها ستتصرف هنا بشكل أسوأ بكثير مما كانت في لندن.

وعندما تباطأ القطار لكي يقف في المحطة النهائية، مر به، في الوقت نفسه، قطار آخر كان يتجه جنوباً إلى لندن. وشعرت إيزوبيل برغبة ملحة في أن تفتح الباب الجانبي لكي تنتقل هي وابنتها وامتعتها إلى ذلك القطار لكي تعودا ادراجهما. ما كان لها ولهذا كله؟

وعندما توقف القطار أخيراً، كان كل المسافرين حولهما يجمعون امتعتهم استعداداً للخروج. ووقفت إيزوبيل بدورها رغم عدم المبالاة التي أظهرتها كوري.

تقدم منهما رجل متوسط في السن كان يجلس معهما في المقصورة منذ البداية، تقدم يسألهما: «هل هذه الأمتعة تخصكما؟» وكان قد لاحظ انهماكها بثلاث حقائب وابنة كانت تحاول دفعها جميعاً من القطار. وقالت له شاكرة وهي تحاول جر ابنتها العنيدة من على مقعدها: «هاتان الحقيبتان فقط. وشكراً لك. انهما ثقيلتان نوعاً ما.»

قال الرجل وهو يومىء بالسير أمامه: «لا بأس.» وسارت إيزوبيل وهي تجر ابنتها خلفها. ثم نزلت إلى الرصيف وقد تملكها اليأس.

ولاحظت على الفور أن الجو هنا اكثر برودة مما هو في لندن، حيث كانت ملابسها المكونة من بنطال خفيف وقميص ادوارد القطني الخفيف تعلوه جاكتة صوفية طويلة، كافية تماماً، أما هنا، فقد نفذ الهواء البارد في قميصها، عابثاً بخصلات شعرها حول وجهها. وسرها أن كانت قد ضمت شعرها، أثناء السفر، في ضفيرة واحدة غليظة.

سألها الرجل وهو يضع حقيبتيها بجانبها: «هل هنالك أحد بانتظارك؟»

فاستدارت إليه وهي تبتسم بعصبية، وأجابت: «إنني... كلا.» ونظرت حولها بشيء من الارتباك وهي تلاحظ أن غلاسكو هي مدينة أكبر مما كانت تتصور وتابعت تقول: «كلا. عليّ أن أغير القطار. اننا ذاهبتان إلى فورت ويليام. هل تعلم أي رصيف علينا أن نقف عليه؟»

أجاب: «أظن ذلك القطار يسير من شارع الملكة وهذا يبعد عن هنا حوالي ربع الساعة. وأظن أن عليكما أن تستقلا سيارة اجرة.»

وهنا ردت كوري، لأول مرة منذ أن تركت لندن، قائلة بصوت لا يحوي أي شكر أو عرفان جميل: «آه، هذا رائع.» فرمقتها أمها بنظرة تحذير قبل أن تعود فتستدير إلى الرجل قائلة: «سيارة اجرة؟» فأشار الرجل إلى المنفذ الذي عليهما أن تخرجا منه، قائلاً: «كان عليّ ان آخذكما إلى ذلك المكان بنفسي، ولكن زوجتي بانتظاري.» وكانت هي تطمئنه إلى أن بإمكانها التصرف وحدها. عندها لاحظت بزاوية عينها، رجلاً آخر يراقبهم بشيء من الاهتمام.

كان الرصيف قد خلا الآن من المسافرين، إلا من امثالها من الذين كانوا غرباء عن المحيط وليس هناك من ينتظرهم، فكانوا يحتاجون إلى وقت لكي يجدوا طريقهم.

ولكن الرجل الذي كان يراقبهم لم يكن واحداً من أولئك المتخلفين. وفي الحقيقة لم تره نزل من القطار مطلقاً. فقد كان طوال الوقت مستنداً إلى جدار غرفة الانتظار. وكان شعره طويلاً قد شعثته النسائم قليلاً. وكانت سترته التي كانت معلقة على كتفيه العريضتين، كانت تبدو غالية الثمن وكذلك بنطاله وقميصه الأسودان.

وشعرت إيزوبيل بالفضول يجتاحها رغم أنه لم يكن من عادتها ملاحظة الرجال وما يلبسون. من تراه يكون؟ ولماذا يراقبهما؟ اخذت هذه التساؤلات تنتابها فهي لم تكن تعرف أحداً في اسكوتلندا، خصوصاً رجالاً كهذا يمثل بملامحه الداكنة الخشنة جمال عنصره من سكان أعالي الجبال.

وعندما تركهما الرجل الذي ساعدهما في حمل امتعتهما من القطار، قالت كوري بغلظة: «انني لن أحمل كل هذا.» استدارت إيزوبيل نحوها قائلة بغيظ مكتوم: «ان حملنا ليس ثقيلاً، يا كوري.» ثم وقفت منتصبة القامة وهي ترى ذلك الرجل الذي كان يراقبهما، يقترب منهما يسألهما: «هل بإمكاني المساعدة؟» وذهلت إيزوبيل بعد إذ لم تكن لهجته تتضمن ذرة من اللكنة الاسكتلندية. لقد كانت متأكدة تماماً من أنه اسكوتلندي.

وأجابت متجنبة النظر إلى عينيه: «آه، كلا.» وكانت قد قرأت مرة أنه إذا لم تلتق الأعين فإن المرأة قد لا تصادف ما يزعجها. ونظرت خلفه إلى حيث كان هناك حمال يرفع عربته نحو الرصيف، فأشارت إليه، ثم أمسكت بذراع ابنتها قائلة: «اذهبي واحضريه إلى هنا. فهو سيساعدنا في حمل هذه الأشياء ثم يأخذنا إلى حيث نجد سيارة اجرة.»

فأجابت كوري بلهجة متمردة: «أيجب عليّ هذا؟» ذلك أن اهتمامها كان موجهاً نحو ما يدور بين أمها وبين ذلك الغريب اكثر مما كان نحو إحضار ذلك الحمال. وابتدأت تجيبها قائلة: «نعم، يجب عليك...»

عندما عاد الرجل يقول: «إنك إيزوبيل جاكوبسن، أليس كذلك؟ لقد سمعتك تنادين ابنتك باسم كوري ما جعلني أتأكد من أنني على صواب.»

ازدرت إيزوبيل ريقها، وهذه المرة لم يكن لها أن تتجنب لقاء عينيه هاتين اللتين كانتا بسواد شعره. فسألته: «ومن أنت؟»

أجاب وشفتاه الرقيقتان تنفرجان عن اسنان بيضاء غير منتظمة تماماً: «اسمي ريف ليندسي. وأنا شقيق زوج كلير.

وكنت قادماً إلى غلاسكو لبعض الأعمال، فتطوعت بأن استقبلكما على المحطة وأصطحبكما بسيارتي إلى إنفركالدي.»

شقيق زوج كلير؟

وحدقت إيزوبيل به، وكأنها لا تصدق ذلك. واتسعت ابتسامته وهو يقول: «هل تريدين أن تري إجازة القيادة التي أحملها؟» ووضع يده داخل سترته، ولكن إيزوبيل انتبهت فجأة. ذلك أن لا أحد ليس له صلة بكلير، يعلم بشخصيتها ومن هي كوري. ولكن كلير كانت قد أوضحت أن زوجها هو شقيق مالك إنفركالدي وهذا لا يمكن أن يكون المالك. فقد كان اصغر سناً من أن يكونه، فهو ليس اكبر منها هي بأكثر من سنتين أو نحوهما. وهي لم تشاهد أياً من رجال الطبقة الارستقراطية، مطيلاً شعره بهذا الشكل. فهو يغطي ياقة قميصه من الخلف بحوالي الخمسة سنتمترات. ثم ان ريف ليندسي هذا له ملامح سكان الجبال السمراء إذا كان اسكوتلنديا حقاً. وربما كان أخاً أصغر لزوج كلير.

قالت له: «هذا ليس ضرورياً.» وتابعت تقول ما جعل كوري تنظر إليها باشمئزاز: «ان لهجتك ليست اسكتلندية.»

كانت هذه ملاحظة حمقاء منها، وكان بإمكانه أن يتجاهلها، ولكنه بدلاً من ذلك أجابها ساخراً، بلهجة اسكتلندية عامية صرفة: «كلا؟ لو كنت أعلم انك تفضلين اللهجة العامية، لما حاولت اخفاءها.» ثم أشار إلى الحمال يستدعيه، وعندما اقبل هذا، أشار إليه بحمل الأمتعة وهو يقول لها: «ان سيارتي في الخارج. هل نذهب؟»

ولأول مرة منذ تركا لندن هذا الصباح، بدا الانشراح على كوري. وبعد أن بادلت أمها نظرات التحدي، وضعت حقيبتها في كتفها، ثم تبعت ريف ليندسي والحمال. لقد بدا واضحاً أن هذا التطور الجديد قد لاقى منها استحساناً، ما جعل إيزوبيل تشكر حظها على هذا. ولكنها وهي تتبعهم، كانت تشعر إزاء كل هذا بشيء من الإضطراب.

الفصل الثاني

«ما الذي جعلك تقوم بأمرٍ كهذا؟»

قالت الكونتيسة ذلك وهي تحدّق في ابنها الأكبر باستياء ظاهر، ثم تابعت وهي تلوي عقد اللآلىء في عنقها بضيق: «ما هو نوع الانطباع الذي ستأخذه هي عن الأسرة، وأنت تتصرف كأحد من عمالك؟ لا أدري يا ريف، ما كان سيقوله أبوك لو أنه ما زال حياً!»

أجاب بجفاء: «لا أظنه كان سيعتبره ذنباً يستحق الشنق، كل ما فعلته هو أنني أوصلت المرأة بسيارتي، يا أمي فأنا لم أخطفها.»

ردت عليه بحدة: «كلا. ولكنك لا تعرفها. كيف تتقدم إليها في المحطة وتحدثها كأي شخص عامي؟ ما الذي تراها ظنت؟ وما الذي ستفعله أنت إذا هي أخذت تخبر كل إنسان بأن مالك إنفركالدي قد أوصلها بسيارته؟»

أجاب: «ولكنني فعلت ذلك.»

قالت: «ريف، إنك تدرك تماماً ماذا أعني، فهي لها مطلق الحرية في أن تقول ما تشاء. حتى انها ربما تتهمك بأنك كنت متلهفاً للقائها، ما جعلك تذهب إلى غلاسكو خصوصاً لهذا السبب.»

قال: «هذا كلام فارغ يا أمي. وأنت تعلمين ذلك.» نهض واقفاً، ونظر إليها ببرود قائلاً: «إن لديّ موعداً مع فيليب الآن. إنك تعلمين ذلك لأنك أنت التي تدبرت هذا الموعد.»

قالت: «إنني أعلم ذلك، وكذلك أنت تعلم، إنما لا أحد آخر. ولا أظنك ستطوف في أنحاء القرية تعلن شؤونك على الجميع دون استثناء.»

وأخذت تنظر إليه وهو يسكب لنفسه كوباً من عصير البرتقال، ثم قالت بلهجة ليّنة: «ما هو شكلها، على كل حال؟ لقد قالت كلير إن لديها إبنة صغيرة. إنني أشك في أنها ستجد إنفركالدي مسلية بعد لندن. هل يبدو عليهما الاختلاف الشديد عنا نحن أهل الشمال؟»

استدار ريف إليها قائلاً: «ليس لديّ فكرة عن رأيهما بنا، يا أماه، ولكنهما غير متوحشتين، إذا كان هذا ما تعنينه بكلامك هذا. فالمرأة يبدو عليها أنها مثقفة إلى درجة لا بأس بها. وحسب قول كلير، كان أبوها مؤرخاً. أما ابنتها فهي شأن آخر، إنها في الثالثة عشرة وتتصرف كمن في الثلاثين، إذا كان بإمكانك أن تدركي ما أعني.»

قالت الأم باستخفاف: «لقد فهمت ما تعني. كان عليّ أن أعلم أن من الخطأ توظيف امرأة انكليزية. ما الذي جعلك تقتنع بكلام كلير؟ إنهما ستستقران في بيت الآنسة ماكلاي الآن ولن تخرجا منه بتاتاً.»

تنهد ريف قائلاً: «هل لي أن أذكرك بأن الدكتور وبستر نفسه كان راغباً في توظيف السيدة جاكوبسن؟ إنها ستتوظف عنده هو على كل حال. وآل وبستر يعرفونها منذ عشرين عاماً كما يبدو. ولكنها انقطعت علاقتها بكلير منذ انتقلت هذه وأسرتها من لندن إلى اسكوتلندا.»

قالت الأم: «السيدة جاكوبسن! ما الذي حدث لزوجها؟ وكم يبلغ عمرها؟ في منتصف الثلاثينات؟ في الأربعين؟»

حدّق ريف في كوبه وهو يجيب بفتور دون أن يدرك بالضبط لماذا عليه أن يصحح كلامها، أجاب قائلاً: «بل هي أصغر.» وما كان ليهتم بفكرة أمه عن عمر تلك المرأة التي لم تكد تتحدث إليه طيلة الساعتين اللتين أمضتهما معه في السيارة من غلاسكو. وبينما كان يضع حقائبها في صندوق السيارة، جلست في المقعد الخلفي من سيارته الرانج روفر تاركة إياه مع ابنتها الطائشة، والتي تجاهلت أوامر أمها تماماً وصعدت إلى المقعد بجانبه.

قطع عليه مجرى أفكاره صوت أمه يقول: «لقد ترمّلت صغيرة إذن، ألا تظن ذلك؟»

أجاب: «لقد قالت كلير ان زوجها قتل في حادث سيارة. هل هذا يهمك حقاً؟ لأنه من غير المحتمل أن يكون لك أية صلة بها.»

أجابت: «كلا، أظن الحق معك. وعلى كل حال، قد لا تعجبهما الإقامة هنا، وهذا ما نرجوه.»

مشى نحو المدفأة يضع كوبه على رفها، ثم راح يحدق في النار المشتعلة في جوفها.

اكتشف وهو يحدّق في اللهب الأزرق المتواثب، أن أفكاره كانت تعود، بالرغم عنه إلى إيزوبيل جاكوبسن. لقد كان الفضول يتملكه نحوها. فقد أثار اهتمامه تحفظها وبرودها. ولأول مرة، بعد وفاة زوجته سارة، يجد نفسه يفكر في امرأة بشكل يختلف عما اعتاده من الازدراء الخفيف. ولكنه كان متأكداً من أن هذا لا يعني أنه شعر بالانجذاب إليها، وإنما كل ما في الأمر أنه كان يشعر بالأسى لأجلها. إذ ليس من السهل أن تجد نفسها أرملة مع ابنة كهذه. وكان من رأي ريف أن كوري بحاجة إلى عناية جادة.

كان المنظر الذي تطل عليه نوافذ البيت، رائع الجمال. وقفت إيزوبيل في غرفة نومها وأخذت تحدّق وتحدّق في ذلك المنظر الرائع للأرض والسماء اللتين تنبسطان أمامها. لقد كانت الحقول تمتد إلى البحيرة حيث كانت الأبقار الجبلية ذات القرون ترعى العشب بسلام، كما كانت الاشجار عارية في بعض الأماكن، إلا أنها في أماكن أخرى كانت تعرض ألوان الخريف البديعة. كما كانت قمم الجبال الساحقة تحت السماء قد غمرتها ظلال المساء.

عندما أوقف ريف ليندسي سيارته أمام البيت، كانت الشمس قد توارت خلف الجبال، ولكن الغيوم كانت ما تزال تحمل دفء الشمس الراحلة ونورها. ولم يكن هنالك قمر، وسرعان ما استحالت الظلال إلى ليل دامس. ولكن إيزوبيل لم يداخلها أي خوف. لقد شعرت بأنها ستكون سعيدة هنا، رغم أن شعورها هذا قد يكون سابقاً لأوانه. وكان هذا غريباً بالنسبة لترددها خلال الرحلة وخاصة القسم الأخير منها، ولكنها في الواقع لم تكن معتادة على التعامل مع الرجال على المستوى الشخصي، خصوصاً الشبان منهم، وبالأخص أمثال ريف ليندسي. ذلك أن حياتها مع إدوارد، الذي كان يعتبرها وكأنها بعض متاعه، منعتها من تكوين صداقات مع رجال آخرين. وعلى أي حال، فهي ليست معتادة على هذا، فقد كانت في الثامنة عشرة عندما تزوجت، وعدا عن والدها، كان زوجها إدوارد هو الرجل الوحيد الذي عرفت.

وكان من لطف أخلاق شقيق زوج كلير أن يأتي لاستقبالهما. ذلك أنها فهمت من حديثه مع ابنتها، أن

صديقتها لم تكن حريصة على إعطائها تفاصيل دقيقة. فقد كان عليهما بعد أن تنتقلا مع أمتعتهما إلى محطة كوين ستريت أن تنتظرا بعض الوقت، كما أن القطار بطيء السرعة ولا يوصلهما مباشرة إلى مقصدهما.

ومع هذا، فقد أدركت أنها لم تكن اجتماعية أثناء الرحلة. ذلك أنها تركت لابنتها تولّي الحديث، وكانت منتبهة تماماً إلى أن كوري قد استغلت هذه الفرصة تماماً، ولكن لم يكن من اللائق أن تعنّفها أمام ريف ليندسي. وقد وجدت باب البيت مفتوحاً. أما ريف فقد وضع أمتعتهما في الغرفة الأمامية، ليعود بعد أن شكرته إلى سيارته وعلى فمه ابتسامة خفيفة ثم ابتعد ملوحاً لهما بأدب.

كانت إيزوبيل قد أنهت وضع الحقائب الفارغة في قاع خزانة كبيرة، واستدارت لتجد كوري واقفة في العتبة. ولم تكن الفتاة قد ساعدتها في تنظيم الأمتعة إلا قليلاً وكان اهتمامها الحقيقي موجهاً إلى اختيار الغرفة التي تقوم في الطابق الأسفل لنفسها. ولم تعارض إيزوبيل، ذلك أن الغرفة الثانية التي تقوم أعلى السلم كانت رغم صغرها، تشرف على مناظر رائعة. وقد كان المنزل مكتظاً بالأثاث إلى درجة بدت معها الغرف صغيرة المساحة، وهكذا كان عليهما أن تضعا أثاثهما الخاص في المخزن حيث لم يكن له مكان.

سألتها كوري: «متى سنأكل؟» ونظرت إيزوبيل إلى ساعة يدها فوجدتها الثامنة. لقد استغرقت في العمل على إفراغ الأمتعة وتنظيمها ما جعلها تنسى كل شيء عن إعداد العشاء.

نظرت حولها قائلة: «على كل حال، لقد ذكرت كلير أنها

ستترك لنا بعض المأكولات في الثلاجة. وأرى أن ننزل إلى المطبخ لنرى ما هناك.»

قالت كوري دون أن تتحرك من مكانها: «إنني أعرف ماذا يوجد في الثلاجة. هنالك بعض البيض والجبن، وإناء يحوي شيئاً لعله لبن رائب. هذا كاننا نباتيون. لماذا لم تترك لنا شيئاً من الهامبرغر أو البفتيك؟»

قالت الأم: «عليك أن تعتبري نفسك محظوظة لأنها تركت لنا شيئاً ناكله. كما أن الهامبرغر لا يناسبك لأنه دسم جداً.»

قالت كوري: «ولكن الزبدة هي كذلك، وقد تركت لنا شيئاً منها. ولكنها تركت لنا خبزاً أسمر فقط.»

ولم تشأ إيزوبيل أن تجعل من موقف ابنتها ما يفسد عليهما أول أمسية في هذا البيت، فقالت تجيبها: «إن الخبز الأسمر لن يضرك لمرة واحدة.» وأشارت إليها بالابتعاد عن طريقها لتخرج وهي تقول: «سأصنع عجة بالجبن الآن. وسنتناول اللبن الرائب بدلاً من الحلوى.»

نزلت كوري السلم أمامها، وهي تتمتم متذمرة من الحياة في القرية، قائلة: «أراهن على أنه لا يوجد مطعم للمأكل الخفيفة حتى على بعد ثلاثين ميلاً.» باعتبارها أن هذه مسافة كبيرة. ولكن إيزوبيل كانت تفكر، بينها وبين نفسها، أن أي مطعم من هذا النوع لا بد أن يكون أبعد كثيراً.

وبعد لحظات قالت كوري وهي تمرّ بيدها على مائدة المطبخ المصنوعة من خشب الصنوبر، قالت تسأل أمها: «على كل حال، كم يبلغ عمر الآنسة ماكلاي تلك؟ أظنها في التسعين. فكل أثاثها القديم هذا لا بد أنها أحضرته منذ أجيال بعيدة.»

فقالت الأم: «حسناً. في رأيي أنه جميل.» وأخذت تنظر مسرورة إلى الفاصل الذي تعلوه قنطرة، بين المطبخ وغرفة الجلوس التي كانت تحوي أريكة بجانبها مصباح قائم على قاعدة مرتفعة، وكرسي. وكان هنالك مناضد عديدة لكل المناسبات، بالطبع، رغم أن الآنسة ماكلاي ما كانت لتحتاج كل هذا. ولكن هذا كله أسبغ على المكان الطابع البيتي. وفكرت إيزوبيل كم سيبدو مريحاً عندما تشتعل النار في الموقد، وكان عليهما حالياً أن يستعملا المدفأة الكهربائية، فقد كانت هناك مدفأة في المطبخ.

قالت كوري بينما كانت أمها تبحث في الأدراج عن مبشرة الجبنة: «إن البيت ليس كبيراً، أليس كذلك؟ لقد قالت جدتي انه لا بد كان كوخاً للبستاني قبل أن تسكنه الآنسة ماكلاي العجوز. أتظنينه كان كذلك؟»

ردت عليها إيزوبيل قائلة: «إن كوخ البستاني لا يحتوي على تدفئة مركزية. هل لك أن تلقي نظرة في تلك الخزانة فقد تعثرين على مبشرة الجبن، وإلا فإن عليّ أن أقوم بالبرش بنفسي. لقد قالت كلير أن لوازم البيت كاملة.»

نهضت كوري متكاسلة تفتح الخزانة، ولكنها لم تجد شيئاً عدا علبتي حساء، فكرت إيزوبيل في أنهما لا بد قد أصبحتا فاسدتين.

لم يكن لها أن تشعر بخيبة الأمل على كل حال، ذلك أنها كانت قد اكتشفت وجود درج مليء بأدوات المطبخ من كل الأنواع، كان بينها مبشرة جبن يدوية، فحملتها إيزوبيل إلى الحوض لغسلها، بينما عادت كوري إلى مقعدها أمام المائدة.

وبعد لحظات قالت: «إن كلير تلك...»

فرمقتها أمها قائلة: «إنها بالنسبة إليك، تدعى السيدة ليندسي وليس كلير.»

قالت كوري بامتعاض: «لا بأس. السيدة ليندسي. هل هي متزوجة من شقيق ريف؟»

أجابتها أمها: «نعم، إنها متزوجة من شقيق السيد ليندسي، وأتوقع أن تريها غداً، فقد قالت إنها ستحضر إلينا في زيارة خاطفة.»

هزت كوري كتفيها دون اهتمام، ثم عادت تقول: «إنني أتساءل عما إذا كان متزوجاً. أعني ريف... آه حسناً.» وتنهدت بشكل مبالغ فيه وهي ترى التعبير الذي بدا على ملامح أمها، وتابعت تقول: «أعني السيد ليندسي. إنه هادىء تماماً. أليس كذلك؟ هل لاحظت كم أهدابه طويلة؟»

أجابت إيزوبيل: «لقد لاحظت أن عليك الاهتمام بنفسك.» ولم تكن تريد أن تبدأ حديثاً عن صفات ريف ليندسي. وبدا الامتعاض على ابنتها وهي تقول بوقاحة: «حسناً، على الأقل قلت أنا شيئاً بدلاً من أن أجلس هناك كالدمية. حتى ابتسامة لم تصدر عنك.»

قالت إيزوبيل تدافع عن نفسها: «ولكنني لا أكاد أعرف الرجل، يا كوري. رغم ما بدر عنه من اللطف واللباقة بحيث أوصلنا بسيارته، لا يعني أن عليّ أن أشعر نحوه بالمودة. كما أن رأيي فيه أنه متعجرف نوعاً ما، في الواقع. ولا أظن أن أباك كان سيحبه لو أنه عرفه.»

قالت كوري كمن يفشي سراً: «آه، حسناً. إن أبي ما كان ليحب أيّ شخص ينظر إليك مرتين، لقد كان رجلاً رجعياً

إلى حد رهيب.» ومسحت عينيها وهي تتابع قائلة: «لقد كنت دوماً أقول له ذلك.»

قالت إيزوبيل: «نعم، ولكن...» وشملت ابنتها بنظرة تفيض تأثراً، ذلك أنهما حتى بعد مضي ما يقرب من العام على وفاة إدوارد، كانتا تشتركان أحياناً، في تناوله بانتقاد من دون وعي منهما. وخنقتها غصة ماتت معها كلمات الاعتراض التي كانت ستتفوّه بها، على شفتيها.

قالت لها ابنتها: «أتراك ستبكين؟»

هزت الأم رأسها بحزم وهي تقول: «كلا، ولكنني لا أظن أن لك الحق في أن تتكلمي عن أبيك بهذا الشكل، فهو لم يكن رجعياً في الحقيقة. إنه فقط لم يكن يهتم بالأفكار الجديدة والصرعات.»

قالت كوري وقد منحها جواب أمها الهادىء الثقة برأيها هذا: «هذا مؤكد. ولكن هذا لا يعني أن عليك أن تتصرفي وكأنك امرأة مسنّة. حقاً انك لست فتية، ولكنك أيضاً لست عجوزاً.»

أجابت: «آه، شكراً.»

قالت كوري: «وكان عليك أن تلاحظي مقدار جاذبية ريف.»

قالت إيزوبيل: «كوري. كم مرة أخبرتك أنني لا أهتم بالرجال الآخرين سواء كانوا جذابين أم لا؟»

كانت هذه الوجبة السريعة أفضل ما توقعت إيزوبيل أن تكون. فقد كان الحليب الذي تركته لهما كلير طازجاً دسماً. تناولتا القهوة ممزوجة بهذا الحليب الطازج وليس بذلك الحليب المنزوعة قشدته الذي اعتادت إيزوبيل شراءه.

وكانتا جالستين تستمتعان بالكوب الثاني عندما سمعتا قرعاً على الباب.

لم يكن مستغرباً أن تتلكأ إيزوبيل في فتح الباب، فقد كان الليل يبدو من خلال ستائر النافذة حالك السواد. هذا رغم أنها منطقياً، كانت تعلم أن لا سبيل هنا لوصول اللصوص أو المعتوهين إليهما.

سألتها كوري: «ألا تريدين أن تري من القادم؟» وكانت تنظر إلى أمها بشيء من التوجس. ولم تشأ هذه أن تجعل للخوف سبيلاً إلى نفس ابنتها، فنهضت واقفة وهي تقول: «لا بد من ذلك.» وعند ذلك سمعت صوت كلير يهتف بها من خلف الباب: «إنه أنا فقط يا إيزوبيل.» وعند ذلك تلاشى القلق من نفسها، فاندفعت إلى الباب تفتحه، لتدخل كلير الغرفة ناشرة في الجوّ عطرها الفرنسي. وبدا حذاؤها الطويل ومعطفها الفرو الثمين غريباً عن مثل غرفة الجلوس المتواضعة، ما جعلها تبدو لإيزوبيل سيدة من الاثرياء تزور أحد الفلاحين في ضيعتها.

هتفت كلير: «يا عزيزتي إيزوبيل.» وتعانقت المرأتان، وعادت الزائرة تقول: «لا بد أن هذه هي كوري. مرحباً يا عزيزتي. إن أمك لم تخبرني أنك كبيرة هكذا.»

اقتربت من الفتاة، ورأت إيزوبيل ابنتها تبتعد قليلاً بشيء من التوجس، ولكن الارتياح تملكها بعد أن رأت كلير لا تحاول ارباكها بتقبيلها هي أيضاً، بل اكتفت بمنحها ابتسامة قبل أن تستدير عائدة إلى صديقتها قائلة: «حسناً، والآن، ما رأيك في هذا المكان؟ أليس مريحاً؟ هل لديكما كل ما تحتاجانه؟»

أجابت إيزوبيل: «أظن ذلك. لقد فتحت الحقائب ونظمت الأمتعة وتناولنا العشاء. وكنا ما نزال نتناول القهوة. أتحبين تناول كوب؟»

رفعت كلير كفها رافضة ذلك وكأنما بدت هذه الفكرة كريهة إلى نفسها، وهي تقول: «أوه، كلا. كلا. لقد تناولت وزوجي كولين، العشاء لتوّنا في منزل روبرت أرلوهارت وزوجته جيسيكا.» وأطلقت ضحكة طفولية وهي تتابع: «يا لهما من زوجين جميلين. إنه حاكم المنطقة.»

قالت إيزوبيل وهي تومىء برأسها: «فهمت.» وكأن كلير أحست بأنها تصرفت بشيء من عدم اللباقة، فنظرت حولها وهي تقول: «ولكنك، فعلاً أنجزت كل شيء بسرعة حيرتني، في مثل هذا الوقت القصير. لقد توقعت تماماً أن أراك غارقة في العمل. لا بد أن القطار جاء في موعده هذه المرة. هل أحضركما السيد ماكروجر في سيارته من المحطة؟ طبعاً لا بد أنه فعل ذلك.» وابتسمت مرة أخرى وهي تتابع قائلة: «لأنكما الآن هنا، أليس كذلك؟»

سألتها إيزوبيل باستغراب: «السيد ماكروجر؟» وتساءلت عمن تراه يكون السيد ماكروجر هذا. فقد كانت متأكدة من أن الرجل قال إن اسمه هو ليندسي. نعم. نعم، هذا صحيح. وقد ذكرت كوري ذلك منذ فترة عندما كانت تلوم أمها لعدم تحدثها إليه. ولكن قبل أن تقول أيّ شيء آخر، تدخلت كوري قائلة وهي ترمق أمها بنظرة ذات معنى: «لقد أحضرنا من غلاسكو قائلاً إن القطارات عادة لا يمكن الوثوق بها. وهذا هو السبب في حضوره لاستقبالنا.»

استدارت كلير إلى الفتاة وقد قطبت حاجبيها الأشقرين

قائلة: «هل قطع توم ماكروجر كل ذلك الطريق إلى غلاسكو...» وبدت في عينيها نظرة ذعر أفسدت زينة وجهها الشاحب. بينما ألقت كوري بابتسامة خبيثة واسعة إلى أمها وهي تقول: «أظنه قال إن اسمه هو ريف. نعم، كان اسمه ريف بالتأكيد. أليس كذلك يا أماه؟ وليس ماكروجر بل ليندسي. وهو اسمك أنت. أليس كذلك؟»

أدركت إيزوبيل على الفور هدف ابنتها من هذا، فقد كان واضحاً غيظها من كلير ومن الجوّ الغامض الذي يوحي بالترفع الذي يشيع منها. وهكذا دخلت الساحة دون انتظار أمها، لتستمتع بمنظر هزيمة العدوّ.

فتحت كلير فمها ذاهلة وهي تقول بصوت خافت وقد بدا الذعر واضحاً عليها: «ريف؟ ولكن، لكنه لا يعرفكما. أليس كذلك؟ لا بد أنكما مخطئتان، لأن ريف لا يمكن أبداً...»

قالت إيزوبيل دون رغبة منها: «أظن أن هذا هو اسمه الذي ذكره.» ونظرت إلى ابنتها تحذرها من أي اندفاع آخر، ثم تابعت تقول: «لقد قال إنه شقيق زوجك، يا كلير. وقد ظننت أنك تعلمين بكل شيء عن هذا.»

أجابت هذه: «كلا، لم أكن أعلم.» ولم تستطع كلير أن تخفي شعورها بالاستياء وهي تتابع قائلة: «لا أستطيع أن أصدق هذا. ولماذا يقوم بشيء كهذا؟» وبدا عليها الغضب وهي تنظر إلى إيزوبيل قائلة: «وكيف عرفكما؟»

عقدت إيزوبيل ذراعيها فوق صدرها شاعرة بالنفور. فقد كان تصرف كلير هذا فوق ما يستلزمه الأمر، فالأمر واضح جليّ. لقد كان على ريف ليندسي أن يسافر إلى غلاسكو لبعض أعماله، فرأى أن يؤدي خدمة لزوجة أخيه

بأن يستقبل صديقتها. ولكن كلير لم تكن تتصرف وكأن لإيزوبيل صديقتها. حتى انها لم تتصرف وكأن لإيزابيل الحق في أن تكون هنا، فقد كان يبدو عليها العنف وكأنما اقتحمت عليها إيزوبيل منطقة تخصها.

قالت إيزوبيل بصوت أكثر برودا من المعتاد: «أظن أنه كان فقط يتصرف بشهامة. فقد كنا آخر من ترك الرصيف من المسافرين. فأنت لم توضحي أن علينا أن نغيّر المحطات عند تغيير القطارات، فتقدم لمساعدتنا. وكما سبق وقلت، ظننت أنك تعلمين بالأمر.»

تنفست كلير بعمق في محاولة لتهدئة نفسها، ثم قالت: «كلا، لم أكن...» وسكتت فجأة، ثم عادت تقول بهدوء وكأنها تحدث نفسها: «وأنا لا أظن أن زوجي كولين وأمه يعرفان شيئاً عن هذا. ولكن هذه هي طبيعة ريف. فهو دائماً قانون بحد ذاته، يتصرف كما يريد.»

تمنت إيزوبيل لو تخرج كلير الآن، وستترك هي تقدير الموقف هذا إلى الصباح. ولكن، في هذه اللحظة كانت شكوكها السابقة قد عادت إليها، فقالت لها: «نعم، حسناً. إنني آسفة إذا كنت تظنين أننا قد تصرفنا بوقاحة، فلم نقصد هذا. أما الآن فنحن متعبتان إذ لم يكن لديك مانع...»

أسرعت كلير تقول وقد تغيرت لهجتها بسرعة، وعلى فمها ابتسامة خفيفة: «طبعاً لا بد أنكما متعبتان وأنا يجب عليّ أن أذهب كذلك. إن كولين سيتساءل أين عسى أن أكون، فقد وعدته بألا أغيب أكثر من دقيقة واحدة.»

قالت إيزوبيل بلهجة توخت فيها التهذيب: «أشكر لك قدومك.» وألقت نظرة إلى المطبخ وهي تتابع: «أما بالنسبة

إلى الطعام، فأريدك أن تعلميني بثمنه لأدفعه لك.»

قالت كلير وقد تمالكت نفسها: «اوه. كلا. وما قيمة هذه الأشياء التافهة بين الأصدقاء؟» وألقت نظرة على كوري ثم عادت تقول لصديقتها: «ولكن لا بد لي من القول إنكما عرفتما كيف تصلان مكرّمتين يا عزيزتي. لأنه ليس بإمكان كل موظف أن يتباهى بأن مالك انفركالدي كان سائقه.»

www.liilas.com

الفصل الثالث

عندما استيقظت إيزوبيل في الصباح، بقيت مستلقية في فراشها تصغي إلى الصمت. لقد اعتادت على الاستيقاظ على أصوات الناس وحركة السير، وحتى في أعماق الليل، كانت تشعر بجو المدينة حولها.

ولكنها هنا، كان الصوت الوحيد الذي طرق مسامعها هو صوت الطبيعة. فقد كانت طيور الغربان التي تعشش في أعالي الأشجار التي تحيط بحديقة البيت، كانت تحدث أصواتاً، كما كان يعكر ذلك السكون خوار بقرة.

ولكن كان ذلك كل ما أمكنها سماعه، فلم يكن هناك هدير محركات ولا زعيق أبواق سيارات، ولا قرقعة بائع الحليب وهو يضع زجاجات الحليب على العتبات، حتى ولا صفير ساعي البريد وهو يقوم بجولته الصباحية.

كذلك لم يكن هناك صوت من الطابق الأسفل ما كان يعني أن كوري مازالت نائمة. ذلك أن الساعة كانت ماتزال حوالى السابعة، وكانت عادة، تجد صعوبة في ايقاظ ابنتها عند الساعة الثامنة، وذلك في البيت. البيت؟؟...

وألقت الأغطية عنها، لتسير حافية نحو النافذة. عليها أن تذكر نفسها أن هذا قد أصبح من الآن فصاعداً، بيتهما.

وكان الجو بارداً، فارتجفت في قميص نومها. ولكنها جذبت الستارة جانباً وأخذت تحدق خارجاً إلى ذلك المنظر الغريب المحيّر. فقد صبغ الأفق بلون برتقالي يبشر بشروق

الشمس. وكانت قمم الجبال البعيدة مازالت مغشاة بالظلام، بينما بدت البحيرة كمرآة، غير شفافة مغلفة بالغموض. حتى الماشية التي كانت تقف على ضفاف المياه بدت معتمة غير واضحة ولا حقيقية.

وتنفست إيزوبيل بعمق، ورأت البخار يتصاعد من فمها ليكون ضباباً غشى زجاج النافذة. وذكرها هذا بأن من المحتمل ان تصاب بالتهاب رئوي إذا هي بقيت واقفة أمام النافذة بقميصها الخفيف هذا، وعليها الآن أن تحاول معالجة أمر التدفئة المركزية.. وإلا فان عليها ان تلبس المزيد من الثياب السميكة.

ارتدت معطفها المنزلي السميك، واضعة ضفيرتها فوق كتفها، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل، وفكرت في أمتعتها التي كانت شحنتها قبل حضورها والتي كان منتظراً وصولها خلال يوم أو يومين.

وعندما أزاحت ستارة نافذة المطبخ، صافحت عينيها مفاجأة أخرى هي عبارة عن هر أسود ضخم كان جالساً على عتبة النافذة الخارجية منتظراً، كما يبدو، ان يدخله شخص ما. وبعد أن وضعت إيزوبيل إبريق الشاي على النار، فتحت باب المطبخ للهر، ليندفع هذا إلى الداخل، وتندفع معه هبة من الهواء القارص. فأغلقت الباب بسرعة واستدارت تشعل المدفأة الكهربائية وهي تتمتم قائلة تخاطب الهر: «لا أدري من هم اصحابك. ولكن لا بد أنك بحاجة إلى شيء من الحليب، وأرجو أن يكون لدي الكفاية منه.»

وبينما أخذ الهر يلعق الحليب بنهم، كانت هي تقول بجفاء: «هممم... إنه رفيق الحياة.» ولم تكن إيزوبيل قد

تعودت على تربية الحيوانات الأليفة، ذلك أن زوجها لم يكن يحب الكلاب، كما أن حماتها كانت تقول إن الهررة تسبب لها حساسية. وهكذا نفي هذا الموضوع من المنزل بالرغم من رغبتها ورغبة كوري في ذلك.

وما لبثت أن جلست إلى المائدة وأمامها كوب الشاي لقد كان دوماً هذا الوقت من أحب أوقات النهار لديها، فهي حين تجلس ومرفقاها على المائدة وفنجان الشاي الساخن بين كفيها، تشعر عند ذلك، بالتفاؤل والثقة يغمران نفسها.

ولكنها، بعد الليلة الماضية لم تتوقع أن يساورها هذا الشعور. ذلك أنها، حين ذهبت إلى فراشها، شعرت بالكآبة تغمرها غير أنها فكرت في أنها لا بد كانت مبالغة في تقدير سلوك كلير. إذ لا يمكن أن تستحيل تلك الفتاة التي كانت تعرفها، إلى مثل هذه المرأة الكريهة التي رأتها.

ولكنها صدمت هي أيضاً، حين علمت أن ريف ليندسي هو مالك القرية، إيرل أوف إنفركالدي، فهي تعلم رغم عدم خبرتها بالطبع، أن رجلاً في مثل مركزه ليس من المعتاد ان يخرج لاستقبال شخص لا يعرفه. وكذلك دون علم كلير. فلا عجب إذن أن تشعر هذه بكل ذلك الاستياء.

على كل حال، لم تستطع إيزوبيل أن تفهم تماماً السبب في كل هذا الانزعاج الذي أصاب كلير بهذا الشأن. فهي لم ترتكب أي خطأ. انها في الواقع، قد رفضت عرضه للمساعدة، في البداية. ولم تقبل بذلك إلا بعد أن فهمت منه أن كلير قد أرسلته.

وعبست لدى هذه الفكرة. ما الذي تراه فكر فيه عندما أخبرته في البداية، أنها لا تريد مساعدته. ثم تلك الرحلة التي

استلمت كوري أثناءها، زمام الحديث. ما الذي كانت تتحدث عنه يا ترى؟ كان أغلبه عن أفلام الرعب، فقد كانت هي هاجس كوري. لقد تذكرت إيزوبيل هذا الآن كما تذكرت أن ريف ليندسي لم يكن يدلي بأي تعليق عليها، وإنما كان فقط يستمع بغاية الصبر.

وسكبت لنفسها فنجاناً آخر من الشاي. وتملكها الأسى وهي تتذكر أنه كان في الواقع، صبوراً معهما هما الاثنتين. كما أنه لم يدل بأية إشارة إلى أنه كان شيئاً آخر غير شقيق زوج كلير. وتنهدت.

لقد كان جذاباً، جذاباً تماماً في الواقع... وكان هذا هو السبب في دهشتها حين وجدته يحدق فيها، فالعادة ألاّ يحدق رجل مثله في امرأة مثلها. حقاً ان ملامحها كانت تسر الناظر، ولكن لم يسبق أن قال أحد انها صاعقة الجمال. فقد كان وجهها مستديراً عادياً وعيناها عسليتين واسعتين، كما كان أنفها مستقيماً وفمها كبيراً. ومع ان ادوارد اعتاد أن يقول لها انها امرأة كاملة الأنوثة، فقد كانت تظنه يعني أنها سيدة منزل.

هذا بالإضافة إلى انها تعلم عدم قدرتها على منافسة كلير في الأناقة. صحيح أنها ليست بدينة، ولكنها أيضاً ليست نحيفة. وكان طول قامتها يعوض امتلاءها بعض الشيء. أما شعرها الطويل فقد كان ميزتها الوحيدة كما كانت تظن. ورغم أن ادوارد ووالدته كانا يفضلان لو أنها تقصه، فقد تمسكت به إيزوبيل، هذا إلى ان أباها كان يحبه طويلاً ما جعلها تعتبره ذكرى لها بأبيها. وإذا هي حلت ضفيرتها فإنه ينزل حريرياً بلون الصوف.

جذبت ضفيرتها من فوق كتفها حيث أخذت تعبث بشريط المطاط الذي يربطها. لقد منعها شعور الاكتئاب الذي كان يكتنفها الليلة الماضية، من أن تحل ضفيرتها وتسرحها كما تفعل عادة كل ليلة، وهي تبدو هذا الصباح أقل انتظاماً من العادة. انها بحاجة إلى دوش، إذ لا شك أن الآنسة ماكلاي لم تكن تستعمل هذه الأشياء العصرية. ولكن ربما بامكانها أن تقدم طلباً رسمياً بذلك... هذا إذا امكنها أن تجد طريقة تعرف بها كيف تشعل المدفأة القديمة الطراز.

وكانت قد فتحت باب النار في المدفأة هذه، ووقفت تفكر في كيفية اشعالها، عندما سمعت قرعاً على الباب الخلفي. وكانت الساعة لا تكاد تعدو السابعة والنصف فالوقت مازال باكراً للزوار. وكانت تحدق في اصابعها التي سودها السخام، وقد بان شيء من الفزع في وجهها، عندما بدا وجه رجل خارج نافذة المطبخ.

كان القادم هو ريف ليندسي. لكنها صححت لنفسها، كلا، بل إيرل أوف إنفركالدي. وأخذت تحدق فيه وكأنها تحدق في سراب قد أصبح حقيقة.

قال لها، من وراء الزجاج، وهو يبالغ في فتح فمه لكي تفهم ما يقول إذ لم تكن تسمعه، قال وهو يريها حقيبة كوري التي تضعها عادة على ظهرها: «لقد وجدت هذه في السيارة هذا الصباح. افتحي الباب.»

خطفت إيزوبيل أقرب خرقة إليها، وبعد لحظة من الاضطراب والتردد، أخذت تمسح بها السخام عن اصابعها، وبعد أن القت نظرة استسلام على معطفها المنزلي وخفها الرث، فتحت الباب. ومشى الهر نحو القادم يقوس ظهره، متمسحاً بساقيه مرحباً به.

انحنى الزائر يربت على رأسه وهو يقول بجفاء: «ها، بوتي. لقد اعتدت بسرعة على سيدتك الجديدة.» ثم وقف ينظر إلى إيزوبيل مرة أخرى، قائلاً: «هل تحبين الهررة؟ إنه هر الآنسة ماكلاي لم تستطع أخذه معها لأن أختها تعيش في مجمع سكني حيث تربية الحيوانات الأليفة غير مسموح بها.»

قالت: «آه، حسناً... نعم.» وأدركت أن صوتها كان جافاً ولكنها لم تستطع شيئاً إزاء ذلك. فقد كان في مواجهة عينيه العسليتين لها عصر أمس ما فيه الكفاية من الصعوبة، فكيف بها الآن وهي في لم تغسل وجهها بعد، عدا عن شعرها الأشعث.

هذا بينما كانت تبدو على ريف ليندسي كل إمارات الثقة بالنفس حتى في بنطاله الرقيق وحذائه المطاطي هذا إلى شعره الطويل ونقنه غير الحليقة. وكان قميصه يدوي الصنع على الأغلب وكذلك سترته الجلدية لا بد أن تكون غالية الثمن. ولكن ليس مظهره فقط هو الذي عزّز ثقته بنفسه هذه، فقد كانت فطرية فيه، كانت طبيعية تماماً كهذه الابتسامة الكسول على شفتيه.

قال: «هذا حسن.» ومضت لحظة لم تستطع ان تتذكر فيها موضوع حديثهما، بينما تابع هو قوله: «بالنسبة إلى الهر بوتي، كان للآنسة ماكلاي قلب مرهف.» واستند إلى الجدار بجانب الباب وعيناه مستقرتان على يديها اللتين كانتا مازالتا تفركان اصابعها بالمنشفة. فسألها: «هل لديك مشكلة؟»

أجابت: «أنا... لماذا؟.. كلا.» وألقت بالمنشفة جانباً ثم

أومأت نحو الحقيبة التي كانت ماتزال في يده، وهي تقول: «شكراً لاعادتها يا...» ولم تستطع أن تحمل نفسها على مخاطبته يا سيدي، وربما هو يتوقع منها هذا. وتابعت تقول متلعثمة: «إنها.. إنها لكوري.»

أحاب: «لقد خمنت هذا.» ولكنه، مع هذا، لم يناولها إياها. وارتجفت هي عندما تخلل الهواء القارص ثوبها، فقال: «انك تشعرين بالبرد. هل يمكنني الدخول؟» أجابت تردد كلامه وكأنها لم تفهم ما قال: «هل يمكنك الدخول؟» ثم ما لبثت أن أدركت أنه ما دام هذا البيت من املاكه، فهي لا تستطيع منعه. فتراجعت إلى الخلف قائلة: «إذا شئت.»

تقدم متخطياً العتبة وهو يقول ساخراً: «لقد غمرتني بحسن ضيافتك.» وناولها الحقيبة وهو يتابع قائلاً: «لا أظنك استعملت الصوبا من قبل؟»

أغلقت إيزوبيل الباب خلفه بسرعة كادت معها تسحق الهر بالباب، ما جعل هذا ينسحب باستياء إلى غرفة الجلوس. وضغطت هي يديها معاً وهي تواجه زائرها تسأله: «وكيف عرفت ذلك؟»

أجاب: «من الطريقة التي رأيتك تنظرين بها إليها عندما اجتزت النافذة. لقد كنت تنظرين إليها بعينين فارغتين.»

قالت: «بعينين فارغتين؟ إنني لست غبية، ولكنني فقط، لم أعتد على النار المشتعلة، وهذا هو كل شيء.»

قال: «إنها ليست ناراً مشتعلة، وإنما موقد حطب.» وخلع سترته ثم ألقى بها على كرسي، وهو يقول: «لماذا لا تصنعين الشاي من جديد بينما ألقي أنا نظرة على الموقد هذا؟»

قالت وقد حبست انفاسها: «لا يمكن هذا، ان ذلك... أنا متاكدة من أنني اعرف كيف سأتصرف... إنني فقط بحاجة إلى بعض الخشب لاشعاله فيه.» وازدردت ريقها وهي تقول: «اشكرك، أيها السيد.»

استدار ينظر إليها قائلاً: «أيها السيد؟»

ضغطت شفتيها ثم سارعت تقول: «حسناً، إذن، يا سيدي. عليك أن تعذرني، فأنا غير معتادة على التعامل مع... مع الطبقة الارستقراطية.»

لوى شفتيه قائلاً: «لا بد أن هناك حديثاً دار بينك وبين كلير.»

أجابت: «إذن، فما قالته صحيح؟» وكانت ماتزال لا تستطيع تصديق ذلك.

قال وهو يعود إلى الصوبا: «هذا يعتمد على ما أخبرتك به.» ونظر إليها من فوق كتفه وهو يتابع: «هيا، اصنعي الشاي، يا سيدة جاكوبسن. بالنسبة إلي أريد حليباً مع الشاي دون سكر.» وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «لديك حليباً، أليس كذلك؟»

أجابت: «عندي قليل منه.»

تنهد بصبر فارغ وهو يقول: «إنه الهر. ليس لك أن تكون شرهاً إلى هذا الحد يا بوتي.» وألقى نظرة أسف على إيزوبيل وهو يتابع قائلاً: «سأدع آرشي دنكان يحضر لك الحليب كل صباح، ابتداءً من الآن.» واستدار عائداً إلى الموقد يتفحصه، وهو يتابع قائلاً: «وسيموُنك أيضاً بالبيض واللحم إذا كنت تريدين، وأي شيء آخر، بإمكانك ان تشتريه من ستراثمور وإذا كنت مستعجلة، فمن القرية نفسها.»

سألته وهي تزدرد ريقها: «ستراثمور؟»

أجاب: «انها أقرب مدينة إلينا. ألم تخبرك كلير شيئاً عن المنطقة هنا؟»

أخذت إيزوبيل تملأ إبريق الشاي ماءً من صنبور المياه. وعندما استدارت رأت هاتين العينين الداكنتين الحادتين تتفرسان فيها. وتملكها شعور عصبي وكأنها تلميذة مدرسة.

قالت تجيبه: «لقد حدثتني عن القرية.» وعادت تفكر في وضعها المتناقض هذا إذ تصنع الشاي لمالك القرية. ايرل أوف إنفركالدي الذي كان يحاول اشعال الصوبا لها. وأخذت تردد لنفسها أن هذا شيء لا يصدق. لا يصدق.

قال لها بلهجة جافة: «ولكن ألست بحاجة إلى سيارة للتنقل.» وحاولت هي أن تتذكر ما الذي كانت تقول. وكانت تشعر به يراقبها وهي تضع إبريق الشاي على النار. وبدا لها كل شيء آخر ثانوياً في الأهمية. وأخيراً، قال لها: «هل لك أن تناوليني علبة الكبريت؟ يبدو أن الصوبا أصبحت جيدة.»

وناولته علبة الكبريت. ولم تره، وهو يجلس أمام الصوبا بتلك الهيبة التي كانت تلمسها فيه وهو يقف بجانبها مشرفاً عليها بقامته الفارعة. ولكنه مايزال يرسل في اعماقها نوعاً من الإنزعاج. وحدثت نفسها بأن شعورها هذا يعود إلى علمها بمركزه، فهي لم تعتد التعامل مع رجال مثله. ولكن الأمر كان اكثر من ذلك. وكانت هي تدرك هذا. ذلك ان لطفه الزائد قد سبب لها الارتباك. لقد هدم تألقه السريع الحواجز التي لم تكن تعلم أنها قد أحاطت نفسها بها.

أشعل النار ثم أغلق باب الصوبا وسمعت صوت قرقعة

الأخشاب واضطرام النار. وتنفست إيزوبيل بارتياح. وقال: «حالما تصبح النار قوية، يمكنك أن تضيفي بعض قطع الحطب الصغيرة هذه.»

أومأت برأسها قائلة: «إنني عاجزة عن الشكر.»

قال: «هل كلامك صحيح؟» ولم تنتظر منه هذا الجواب، فأسرعت تثبت له أنها تعني ما تقول، وذلك بقولها: «نعم، فإن من شهامتك أن تأتي للاطمئنان علينا. سيكون لدينا ماء ساخن الآن، على الأقل. لقد كان بودي أن استحم ليلة أمس لو... لو، حسناً...» وسكتت فجأة وهي ترى نفسها قد تمادت في شعورها بالإلفة، فماذا يهمه من شؤونها الخاصة؟ فهو مالك بيتها، وهي لا تعدو أن تكون كغيرها من المستأجرين بالنسبة إليه.

تصاعد صوت الغليان من إبريق الشاي، فاتجهت إليه لتصنع الشاي شاعرة بالراحة لأن تجد ما يشغلها مما تتمكن معه من تنظيم افكارها. ولأمر ما، كان يبدو ذا طاقة تحولها إلى بلهاء تتلعثم في كلامها. وسيسرها أن تراه يخرج، فماذا بقي لديه عندها بعد أن أدى واجبه؟ كما أن من غير المحتمل أن تراه مرة أخرى.

سألها: «اتظنين ان الحياة هنا ستعجبك؟»

أرغمت نفسها على التحول إليه لتجيبه قائلة: «أرجو ذلك.» وكانت تتجنب النظر في عينيه مباشرة وهي تتابع: «ان الحياة هنا مختلفة جداً عما اعتدناه. فلندن مدينة صاخبة حتى انك لا تستطيع ان تسمع افكارك.»

سألها: «ألن تفتقدي الضجة هنا؟»

أجابت: «لا أظن ذلك.» كانت تشعر بعينيه عليها، فأشارت إلى كرسي قائلة: «ألا تتفضل بالجلوس.»

تردد برهة، ثم سحب كرسياً جلس عليه، ثم مد يده إلى فنجان الشاي الذي كانت وضعته بجانبه.

تنفست بعمق وهي تسأله: «هل احضر لك شيئاً آخر؟»

نظر إليها من فوق حافة الفنجان، وسألها: «وماذا لديك لتحضريه؟» وأدركت أنه يمزح معها، فلم تعرف بماذا تجيب. كل ما استطاعت التفكير فيه هو أن كوري كان معها حق بالنسبة لأهداب عينيه. فقد كانت طويلة وكثيفة. ولم تكن عيناه سوداوين كما كانت تظن، بل كان لونهما رمادياً. وكانتا عميقتين حادتين تحملان الخطر لسكينتها النفسية.

تمتمت أخيراً: «لدي خبز محمص.» ولكنه هز رأسه قائلاً: «الشاي وحده يكفي. وبما أنني انتهيت علي أن أذهب، واتركك تقومين بشؤونك. ان جون ينتظر رؤيتك في ما بعد. إنه ليس بعيداً من هنا، وهنالك لوحة بإسمه على البوابة يمكنك رؤيتها.»

نظرت إليه حائرة تسأله: «جون؟» فنظر إليها وقد بان الهزل في عينيه، وما لبثت أن تذكرت فقالت: «آه، تعني جون... الذي هو الدكتور وبستر.»

نظر إليها برثاء وهو يقول: «نعم، والد كلير. لا اظنها اخبرتك باسم والدها كذلك. لا بأس.»

ردت عليه بشيء من الكبرياء: «ولكنني أعرف الدكتور وبستر.» يكفي أنه رآها تستدعي الهزل، فهي لا تريده أن يشعر نحوها بالرثاء كذلك.

قال وهو يعيد فنجانه الفارغ إلى المائدة: «هذا حسن. إذن فقد اصبحت تعرفين ثلاثة اشخاص الآن في هذه القرية. ويجب ألاّ انسى ابنتك كذلك.»

قالت وقد تذكرت سبب حضوره: «آه، نعم. يجب أن اشكرك لاحضارك حقيبتها. انها تنسى أحياناً.»

قال بلهجة عدم تصديق: «أحقاً تنسى؟» ولكنه لم يعلق على كلامها، وإنما وقف، ثم تناول سترته يضعها على كتفيه وهو يرد شعره بيده إلى الخلف دون مبالاة، ثم تقدم نحو الصوبا ليلقي نظرة أخيرة عليها متفقداً، ثم قال: «اظنك تعلمين أن بإمكانك الطبخ عليها أيضاً.» ولم تكن إيزوبيل تعلم ذلك، ولكنها جعلت نفسها تبدو وكأنها تعلم. وعاد يقول: «انك ستعتادين عليها بسرعة. وإذا صادفتك أية مشكلة، فلا تخجلي من طلب المساعدة.»

قالت: «كلا، واشكرك مرة أخرى يا سيد... إنني آسفة، ماذا تفضل أن أدعوك به؟»

قال: «لا بأس، قولي ريف فقط.»

ودون كلمة أخرى، مشى نحو الباب يفتحه، ثم وقف وهو يقول: «بالمناسبة، لا تهتمي لما تظهره لك زوجة أخي. ان لكلير شيئاً من مفاهيم الطبقة المتوسطة مما لا نوافق نحن عليه.»

www.liilas.com

الفصل الرابع

عندما عاد ريف من ستراثمور كان أخوه كولين في انتظاره في غرفة المكتب. وكان يتفحص رسائل أخيه بفضول. رفع عينيه وقد بان فيهما الشعور بالذنب وهو يرى ريف يدخل الغرفة، وضع الرسائل جانباً وهو يقف قائلاً: «آه، ها قد عدت. لقد كنت فقط في انتظار القهوة، فقد طلبتها من كومنز منذ فترة، وظننت الآن انه هو القادم.»

أومأ ريف برأسه لا يريد أن يسبب لأخيه المزيد من الارتباك بقوله انه يعلم تماماً ما الذي كان يفعله. وقال: «حسناً، إنني متأكد من أنه لن يتأخر. لقد رأيت السيدة فيلدنغ في القاعة وسألتني إذا كنت أنا أريد قهوة أيضاً.»

قال كولين وقد بدا الارتياح على ملامحه المكتنزة: «آه، هذا جيد.» وفرك يديه ببعضهما وهو يتابع: «يا له من يوم بارد. أليس كذلك؟»

فقال ريف: «بارد؟ آه، نعم.» ثم نظر إلى أخيه الأصغر بشيء من فروغ الصبر وهو يسأله: «هل كنت تريد رؤيتي؟»

هز كولين كتفيه قائلاً وهو يتخلل شعره الخفيف بأصابعه بعصبية: «ليس بوجه خاص. لقد فكرت فقط في المرور عليك وأنا في طريقي إلى دالبيغ وهذا هو كل شيء. انني أريد أن اتحدث إلى ستيوارت.»

رفع ريف حاجبيه يسأله: «كينيث؟»

أجاب: «كلا بل غوردون. انني أريد أن أتأكد من أن

الأغطية محفوظة جيداً لعطلة هذا الأسبوع بالنسبة لحضور السيد مالكولم.»

وكان ريف يستمع إلى أخيه بأذن واحدة، فقد كان اهتمامه منصباً على أشياء أخرى، وعلى الأخص ذهابه إلى بيت السيدة جاكوبسن هذا الصباح. ذلك أنه لم يقصد ذلك وكان يريد فقط أن يضع الحقيبة على عتبة الباب، ولكنه ما أن مرّ بنافذة المطبخ، ورأى السيدة جاكوبسن، حتى تصرف تلقائياً دون وعي منه.

لماذا؟ لماذا قرب الباب؟ آه قد يكون ذلك لأنه رآها لا تعرف كيف تشعل الصوبا، وكان ذلك جلياً في نظرتها إليها وكأنها لم تر مثلها من قبل. ولكن كلا، فهذا لم يكن عذراً إذ أنها كانت سرعان ما تجد الطريقة للتصرف بنفسها. إن أيّ شخص بامكانه أن يشعل ناراً إذا تيسر له الخشب والكبريت وبعض الصبر.

ولكن، لسبب ما لم يفكر حينذاك، بطريقة منطقية. ربما كان ذلك بسبب ما كانت أمه قد قالته الليلة السابقة ولكنه عاد فاعترف بأن ذلك ليس هو السبب الحقيقي تماماً. لا شك أن موقف أمه ذاك قد ضايقه، ولكنه عندما قرع باب السيدة جاكوبسن لم يكن يفكر في أمه.

تنحنح كولين، ثم قال بلهجة تعمّد أن تكون عفوية: «لقد كانت أخبرتني كلير أنك قابلت موظفة الدكتور وبستر الجديدة.»

ردته كلمات أخيه هذه إلى واقعه، فنظر إليه يسأله مقطباً جبينه: «ماذا تقول؟»

أجاب: «لقد أخبرتني كلير بأنك... بأنك أوصلت موظفة

والدها الجديدة أمس، وعملك هذا فيه شيء من الغرابة، أليس كذلك؟ ان والدتنا تظن انك لم تفعل هذا إلا لاحراجها هي.»

ألقى ريف على أخيه نظرة ضجرة، ووقف ثم تهالك على كرسي كبير، وهو يقول باختصار: «إن والدتنا تعاني من عقدة الإضطهاد. فأنا أعرف أن السيدة جاكوبسن ليست غريبة عن كلير فقد كانت زميلتها في المدرسة. أليس كذلك؟ أم أن كلير قد أصبحت من الغرور بحيث تنسى جذورها؟»

قال أخوه وقد توهج وجهه: «كلا بالطبع.» واستدار شاعراً بشيء من الإرتياح لدى سماعه نقراً على الباب، ومن ثم دخل كومنز الذي ما زال يخدم في قلعة إنفركالدي منذ اربعين سنة، دخل يحمل صينية القهوة. ونظر إلى ريف سائلاً: «هل أضعها على المكتب، يا سيدي؟»

أومأ ريف برأسه، وهو يقول: «شكراً. سنقوم نحن بسكب القهوة.»

قال كومنز: «نعم يا سيدي.» واستدار ثم خرج من الغرفة وما أن أغلق الباب خلفه، حتى انفجر كولين قائلاً: «يا لهذا الرجل. لو لم يكن قد اقترب من سن التقاعد لكنت طلبت منك أن تطرده يا ريف. انه غالباً غير مهذب وكلما طلبت منه شيئاً ينساه.»

قال ريف بهدوء دون أن يمدّ يده ليسكب القهوة: «هل لأنه لا يستجيب لتهديد كلير؟ ولكنه رجل عجوز، هل نسيت هذا؟»

أجابه مغتاظاً: «ولكنه خادم، يا ريف.»

قال ريف: «إنه موظف، ويستحق شيئاً من الاعتبار.» وسكت قليلاً ثم عاد يقول: «خصوصاً الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.»

قال كولين: «إن كل ما طلبته كلير منه هو كوب من الكاكاو.»

قال ريف: «كان يمكنها القيام بذلك بنفسها.»

قال كولين: «لا أظن مدبرة المنزل السيدة فيلدنغ تقبل بأن يتدخل أحد بشؤون المطبخ. ان كلير لم تحضره من فراشه فقد كان يمضي الليل في لعب الورق مع لوكاس.»

نظر إليه ريف ببرود قائلاً: «لم يكن في تلك الليلة مسؤولاً عن العمل.»

قال كولين وهو يقترب من المكتب ويبدأ بسكب القهوة: «لابأس. ان الرجل هو مثال للعائلة، أما كلير فهي المتعالية المتغطرسة. ولكنها لا تريد سوى أن تساعد في حفظ كرامة الأسرة. ان أساسنا هنا يا ريف وعلينا أن نصون كرامتنا.»

لوي ريف شفتيه قائلاً: «تعني بذلك الترفع عن الاختلاط بالآخرين. أليس كذلك؟»

نظر إليه كولين قائلاً: «وما الخطأ في هذا؟»

هزّ ريف كتفيه قائلاً: «إذا لم تكن تدرك ذلك بنفسك، فليس بامكاني أن أخبرك به.»

فشهق كولين ثم قال: «لا تظن انني لا أعرف ما الذي تقوم به. انك فقط تريد أن تحول الانتباه عن تقصيرك. لا بأس. ربما تخطىء كلير أحياناً، ولكنها هذه المرة على صواب.»

اندفع ريف واقفاً وهو يقول: «أحقاً؟» فتراجع كولين إلى الخلف وكأنه يتوقع من أخيه رداً جسدياً، ولكن كل ما فعله هذا، ان سار إلى حيث توجد صينية عليها أنواعاً مختلفة من علب السجائر وسحب واحدة، وهو يقول: «جميل جداً، لقد وضعت اعتراضك في الاعتبار.»

www.liilas.com

قال كولين: «ولكنك لن تتصرف بمقتضاه. ثم ما الخطأ في القهوة في هذا الوقت من الصباح؟ هل عليك أن تدمر صحتك في التدخين؟ صدقني يا ريف انك تحاول أن تقتل نفسك.»

أجاب ريف بوجه جامد الملامح: «ولماذا تهتم لذلك؟ إنني إذا لم أكن موجوداً فانك وكلير، سيكون لكما الحق القانوني في أن تكونا سيد وسيدة الأملاك.»

قال كولين: «إن قولك هذا هو الحماقة بعينها.» ووضع الفنجان في صحنه بصوت مسموع. ونظر ريف إلى وجه أخيه المذهول، ثم أدركه الندم لما قاله. لم يكن من الصواب أن يعامل كولين وكأنه غلام يستوجب التأديب. فهو لم يظهر يوماً استياءً من أخيه الأكبر. وعندما ماتت سارة، قام بكل ما في إمكانه لتخفيف الأسى عنه.

وأخيراً قال: «إنني آسف. لم يكن ثمة ضرورة لكلام كهذا. وقد جئتني في لحظة سيئة يا كولين، فإن مزاجي ليس حسناً. وأريدك أن تعذرني.»

فهز كولين رأسه قائلاً: «لا تهتم لذلك، يا أخي. ما كان لي أن أتدخل بشؤونك، ولم أكن أعلم ما عندك من مشكلات.»

أومأ ريف برأسه موافقاً على كلامه وهو يهنىء نفسه على هذا الأخ الذي يسارع دوماً إلى التسامح والتجاوز عن الاساءة. وأخذ يفكر في نفسه. لقد كان شعوره تماماً، حتى وقت قريب هو نفسه الذي تملكه عند وفاة سارة، ولكنه الآن لم يعد واثقاً من ذلك. لقد تملكته الشكوك لسبب ما، وهي شكوك غير مستحبة. ان في هذا ما يدعو إلى السخرية حقاً، إذ أنه عند وفاة سارة وهي تضع طفلها كان مقتنعاً بأنه لن

يتجاوز محنته هذه أبداً. فقد كانت شابة لا تعدو الثامنة والعشرين وكان يبدو انجابها لطفل شيئاً عادياً بسيطاً لا يحوي أيّة مشكلة. ومع تقدم الطب لم يكن هناك أي خطر في ان تموت أثناء الوضع. ولكن ريف راوده الشك في أن الطبيب لم يكن يعلم بأن الطفل كان ميتاً. وبلغ الارهاق من سارة بسبب ولادتها المتعسرة ما جعلها تفقد القوة للصمود.

كانت الأمور قد حدثت بسرعة. فقد كان وسارة قبل أسبوع فقط، يختاران اسم المولود، وفي الأسبوع التالي كان واقفاً بجانب ضريحها. ليمضي بعد ذلك، الأسابيع مترقباً كل صباح رؤيتها. وكان يحلم بها دوماً، تضحك معه وتتكلم معه بينما جسدها الصغير ما زال منتفخ البطن بالحمل وكانت أحلامه هذه هي أسوأ ما مرّ به، إذ أنه كان يجد عندما يستيقظ، ان عليه أن يواجه الحقيقة المرة من جديد. انه من دون تلك الأحلام يمكنه على الأقل ان يعلم أن لا أمل له فيها بعد الآن.

لماذا اذن يستاء الآن من واقع انه قد أصبح بامكانه التفكير في ما حدث دون ان تمتلكه تلك المشاعر المدمرة من اليأس؟ هل يعني ذلك أنه، طوال تلك السنتين كان قد اعتاد الألم وأصبح يستعذبه. قد لا يسامح نفسه أبداً لما حدث لسارة ولكن ليس بامكانه أن يفكر في أي شيء آخر. وكان عليه أن يكون مسروراً لكونه قد ابتدأ يتقبل الأمور هذه التي لا مناص منها... مسروراً لأنه أخيراً قد ابتدأ يتكيّف مع فكرة موتها.

وربما أمه ستعتبر ذلك نجاحاً لعلاج الدكتور فيليب النفسي. فهي التي كانت أقنعته باللجوء إليه لطلب العون في

www.liilas.com

العلاج. وأثناء الأشهر الستة الأخيرة، كان يمضي ساعتين أسبوعياً في عيادة الطبيب النفسي ذاك الذي كان يخبره بأن الحزن وتعذيب النفس لن يعيدا إليه زوجته الحبيبة.

ولكن أمه كانت قد توسلت إليه، لكي ينشد مساعدة الطبيب، وكان من الأسهل عليه أن يطيعها، من ان يتحمل رؤية دموعها.

وكان هذا هو ما جعله لا يصدّق أن علاج الدكتور فيليب هو سبب ما يشعر به الآن. ولم يشأ أن يعتقد بأن تغير مزاجه هو نتيجة لما حدث عصر أمس والذي يعتقد بأنه السبب في الغيظ الذي ينتابه. لقد أثار حنقه أن يفكر في أن إيزوبيل جاكوبسن وابنتها المبكرة النضج، قد تركتا أيّ تأثير ايجابي على حالته النفسية. ذلك انه لم يذهب لاستقبالهما في المحطة إلا بهدف اغاظة والدته في الدرجة الأولى. فأمه قد تكون نجحت في اخضاعه لطبيبها النفسي ذاك، ولكن ما زال في امكانه أن يتصرف بشكل مزعج تماماً إذا هو شاء ذلك.

وأخذ يفكر متأملاً. هذا الصباح مثلاً، لماذا تملكه ذلك الشعور القاهر بأن يساعد السيدة جاكوبسن مرة أخرى؟ فهي ليست من نوع النساء اللاتي اعتدن أن يجذبنه. فعدا عن الاختلاف الاجتماعي الجلي بينهما، فهي لم تبد في نظره المرأة المثالية. فهو يفضل النساء الصغيرات الحجم مثل سارة وليس الطويلات الشامخات القامة. فهي لم تكن سوى وسيلة لاغاظة أمه، ليس إلا. وضايقه شعوره بأنه إنما تصرف بطريقة غير لائقة. حتى مجرد التفكير في أنها قد جذبت انتباهه قد أزعجه. انه لم يكن يريد أو يشعر بحاجة إلى مثل هذه التعقيدات في حياته.

قال كولين أخيراً، وكان واضحاً أنه يعتقد بأن ريف ما زال مستاء من تصرف زوجته: «على كل حال أظن من الأفضل اقفال هذا الموضوع الآن. أليس كذلك؟ إنني متأكد من أن السيدة جاكوبسن كانت شاكرة جداً عدم اضطرارها لانتظار القطار المحلي. وهي على الأقل قد تعرفت إلى المنطقة بطريقة لائقة. وأنا متأكد كذلك من أن الدكتور وبستر سيكون مسروراً إذ يعلم بهذا. وأنت تعلم أنه لم يكن من السهل العثور على بديل للآنسة ماكلاي، إذ ليس هناك كثيرون يرغبون في الانتقال إلى مثل هذه القرية النائية في أعالي الجبال، هذا إذا لم يكونوا متعودين على مثل هذه البيئة.»

لم يجب ريف، فقد كان من الصعب عليه أن يقول أي شيء دون أن يزيد من توريط نفسه، ثم أنه لا يريد أن يدخل في مناقشة أخرى مع أمه. ويكفي كل شكاويها الحالية منه، كما أنه تعب من تقديم حساب عن تحركاته لأي منهما.

وهكذا، عاد إلى سابق تعليقات أخيه عن أعضاء فرقة الصيد الذين كانوا سيزورون قريتهم في عطلة الأسبوع القادم. لقد كان السيد مالكولم كالدر صديقاً قديماً لوالده. وكان الشك يساور ريف في أن السبب الرئيسي الذي وراء زيارة مالكولم هذا هي رؤية والدته. ذلك أن زوجته هو أيضاً، قد سبق وتوفيت منذ فترة. ولم يكن ريف يعتقد أن تعدد زياراته لهم في السنوات الأخيرة، هي مجرد تخيلات منه.

فكر ريف في أن هذا لا يعني أن أمه سيعجبها أن يقال لها ذلك.

www.liilas.com

فقد كانت أمه تعتبر أن دورها في الحياة هو أن تطمئن إلى أن بامكان ابنها أن يملأ مركزه كما يجب أن يكون ايرل أوف إنفركالدي وارث الأملاك. وكان يعلم أنها تعتبر مرور عامين وقتاً كافياً للحداد. وقريباً جداً ستبدأ بالتفتيش عن عرائس شابات له مرة أخرى وستتوقع أن يكون زواجاً مناسباً كما سبق وحدث بالنسبة إلى سارة.

وكان قد قابل سارة بعد انتهاء جنازة والده مباشرة. فقد كان هنالك كثير من الزائرين يترددون إلى أنفركالدي أثناء أيام الحداد التي تلت وفاة والده، وكانت احدى الزائرات زميلة الدراسة لوالدته، واسمها سيليا لارسون، التي كانت هي أيضاً أرملة، وأحضرت معها ابنتها. وكان أن وجد ريف نفسه يقوم بضيافة سارة وحدها، سواء كان ذلك مصادفة أم عن سابق تصميم. فهو لم يستطع أن يتجنب التفكير في أن لوالدته يداً في هذا الأمر، ولكن انجذابه إلى سارة جعله يتسامح بتدخل أمه بشؤونه. وكان قد حان الوقت لكي يفكر هو في الاستقرار. ذلك أن شقيقه الأصغر كان قد تزوج رغم أنه كان يصغره بسنتين. وبالنسبة إلى مسؤولياته الجديدة كوارث للقب والده وأملاكه، لم يجد ريف مانعاً في قبول الزواج.

كانت سارة تصغره بثمانية أعوام، فكانت بذلك أصغر من النساء اللاتي اعتاد الخروج معهن. وكانت فوق ذلك، ساذجة بشكل غير معقول. ولكنها كانت حلوة بريئة ولذلك اقتضى تقبلها واستيعابها لفكرة الزواج مرور عدة سنوات لكي يزداد تآلفها. ولقد كانا صديقين بقدر ما كانا زوجين.

خرج كولين بعد أن اطمأن إلى أن ريف قد وضع في اعتباره كل التفاصيل المتعلقة بحفلة نهاية الأسبوع.

فالضيوف سيقيمون في القصر، ومع أن كولين وأمه قد استلما مسؤولية تنظيم الأمور فإن أخاه لم يكن يسكن معهما في القصر، إذ كان هناك عدة مساكن كان كولين وأسرته يحتل أوسعها وهو منزل يحتوي على أربع غرف نوم، ويبعد عن القصر قرابة النصف ميل.

وبعد أن خرج أخوه جلس ريف إلى مكتبه، وتناول فنجاناً من القهوة. وعبس لمذاقها الفاتر، ولكنه لم يشأ أن يطلب ابريقاً جديداً. فقد كان الذنب ذنبه إذ لم يتناول القهوة وهي ساخنة.

وكان يكتب ردوداً على بعض الرسائل، عندما تصاعدت أصوات خلف الباب ميز فيها صوت أمه وصوت صبي قد ابتدأ يتذمر. فترك القلم من يده وتوجه إلى الباب يفتحه.

كان جيم ابن أخيه واقفاً في الخارج يناقش جدته قائلاً: «ولكن عمي ريف كان قد وعدني بأن يدعني أمتطي صهوة المهرة مونلايت قبل أن أعود إلى المدرسة. آه...» وسكت فجأة عند ظهور ريف، ثم عاد يقول له: «لقد وعدتني بركوب مونلايت. أليس كذلك يا عمي؟ إن جدتي تقول لي ألاّ أزعجك، ولكن لم يبق لديّ سوى أسبوع أعود بعده إلى المدرسة.»

استند ريف بذراعه إلى الباب. لقد كان وعد الصبي بأن يمضي بعض الوقت معه أثناء اجازته المدرسية. وساوره شعور بالأسف لعدم تحقيق وعده ذاك له. وفي الواقع أن مونلايت كانت فرس سارة، وقد وعد جيم في لحظة ضعف، بأن يسمح له بركوبها، ولكنه ما لبث أن ترك الأمر جانباً.

وكانت الأم تقول: «كنت أقول لجيم إن من غير المحتمل أن تذهب للركوب هذا الصباح. لقد أخبرني كولين أنك متوعك الصحة...» وأطبقت شفتيها بمرارة وهي تنظر خلفه إلى داخل غرفة المكتب. وعادت تقول للصبي: «ربما في وقت آخر، يا جيم. يبدو أن عمك مشغول.»

قال ريف وقد صمم على شيء: «كلا. إنني لست مشغولاً، ولا أدري من أين علم كولين أنني... متوعك الصحة! ان بامكاني أن أخصص من وقتي ساعة أمضيها مع ابن أخي.» وابتسم للصبي وهو يتابع: «إذهب وأحضر معطفك يا جيم، وسأقابلك في الاصطبلات.»

هتف جيم مسروراً، ولكنه ما لبث أن رمق جدته بنظرة اعتذار وهو يقول: «آسف يا جدتي.» ولكن كلماته لم تكن جادة فهما كانا يعلمان انه لا يستطيع الصبر عن الهرولة إلى الخارج. انما كان من التعقل بحيث كان يعلم أن خصومة جدته قد تعرض نزهته للخطر، وأشار إليها مودعاً بأدب، قبل أن يوجه إلى عمه ابتسامة ذات معنى، وما لبث صوت وقع نعليه أن تلاشى على طول الممر.

نظرت الأم إلى ابنها وقد بان على ملامحها عدم الرضا، ثم قالت: «حسناً، انني أعلم أن نصيحتي لك لن تجدي، أليس كذلك؟ ولكن هل تظن أن هذا من الحكمة في شيء؟ هل تريد حقاً أن تخرج للركوب؟»

أجاب بجفاء: «إنني لن أسقط عن ظهر الحصان إذا كان هذا ما تخافين منه.»

قالت: «ولكن جيم لا يحسن الركوب تماماً، فهو بحاجة إلى شخص يستطيع أن يمدّ لمساعدته يداً قوية. كما أنه لم

يمتط مونلايت من قبل. إنني متأكدة من أن أباه كولين لا يعرف شيئاً عن هذه النزهة غير الحكيمة.»

لوى ريف شفتيه قائلاً: «صدقيني يا أمي أنني أحياناً أتساءل في أي قرن كان مولدك.»

ردت عليه بغضب: «إن هذا النوع من الانتقاد هو بالضبط ما أتوقعه من شخص لا يستيقظ صباحاً إلا والسيجارة في فمه. ربما كنت أنا رجعية، ولكنني أعرف، على الأقل، في أي يوم أنا من الأسبوع يا ريف.»

أطبق شفتيه بشدة ثم قال: «انني متزن تماماً، يا أمي.»

www.liilas.com

الفصل الخامس

عندما عادت إيزوبيل من العيادة، وجدت على العتبة دزينة بيض وربع غالون حليب. وحملت ذلك داخلة به المطبخ، وكان الهر متكوراً على عتبة النافذة ولكنه ما لبث أن قفز ليسبقها إلى الباب حين فتحته.

أخذت تفرغ البيض في الثلاجة وهي تفكر في أن من الواضح أن ريف قد وفى بوعده. ولكنها ما أن وضعت للهر بعض الحليب في صحنه، حتى شعرت بدفء يغمر كيانها. وفكرت في أن عليها أن تشعر بالشكر نحوه وليس بالقلق على ما قد يحدث نتيجة تصرفاته هذه، فضلاً عن أن ليس لديها سبب يجعلها تظن أنه يعاملها بطريقة مختلفة عن أي مستأجر جديد. إن ما أفسد الوضع هو موقف كلير فقط، هذا إلى شعورها هي الخاص نحوه...

ومضت تملأ إبريق الشاي بالماء وهي تحاول أن تنبذ خواطرها التي لا تليق بامرأة في مثل وضعها. حتى انه لم تكتمل السنة بعد على وفاة إدوارد. كل ما في الأمر أنها كانت تشعر بالوحدة. ثم إن هذا المكان ما زال غريباً عليها. فهي تسمح للشكوك وتغيّر ظروفها بأن تؤثر على مشاعرها، ليس إلا.

ثم أنها، بعد أن تحدثت إلى آل وبستر هذا الصباح، كان عليها ألاّ تسمح للشكوك بأن تستولي عليها بالنسبة إلى تصرفات ريف ليندسي. ومن الممكن أن تكون كلير قد

أخبرت والديها، طبعاً بما جرى. ولكن الدكتور وبستر بذل كل ما في وسعه لكي يشرح لها كيف أن ريف قد اكتسب، نتيجة وفاة زوجته، سمعة بأنه لا يمكن الركون إليه.

لقد أسرع يقول عندما رأى زوجته تنظر إليه محذرة: «إنني لا أقول إنه مريض... ولكن لا أحد ينكر أن تأثير موت سارة عليه كان عنيفاً جداً، وقد أنفقت أمه عليه مبلغاً طائلاً لكي تجد له علاجاً شافياً.»

حدقت إيزوبيل فيه قائلة: «علاجاً شافياً؟»

لم تستطع أن تصدق أنهما يتحدثان عن نفس الرجل الذي كان عامل ابنتها كوري بكل ذلك الصبر والتسامح، ثم ساعدها بالنسبة إلى الصوبا هذا الصباح. إنه لم يبد لها مريضاً أبداً. كان فقط يبدو لها هازلاً وأليفاً لدرجة مزعجة.

قالت السيدة وبستر: «إنه أحيانا غير مكترث ما جعل على المسكين كولين أن يقوم بأكثر أعمال أخيه. ذلك أن ريف أصبح منذ وفاة زوجته، عرضة لارتكاب الأخطاء.»

وجاء دور الدكتور وبستر ليكون حيادياً، فقال: «لا أظن أن بإمكاننا أن نقول هذا، يا لورا. فحسب علمي، لم يهمل ريف أملاكه قط. كل ما أريد قوله هو أن على إيزوبيل ألاّ تأخذ شهامته نحوها بمعنى شخصي.»

فكرت إيزوبيل الآن، أن هذا الكلام كان بمثابة تحذير لها، تماماً كما تصرفت كلير من قبل، رغم أن ترحيب آل وبستر بها فاق كثيراً ترحيب كلير. وكانت قد تركت كوري في المنزل، ولكنهما أبديا رغبتهما في رؤيتها، حتى ان السيدة وبستر عرضت أن تأخذ إيزوبيل في سيارتها إلى مدينة ستراتمور في الصباح التالي لكي تبتاع ما تحتاجه

من أطعمة قائلة لها: «ستكونين بحاجة إلى أن تزوري المدرسة هناك، لكي تتدبري أمر إدخال كوري. فقد عادت المدارس تفتح أبوابها، بعد الإجازة، منذ أسابيع، وهكذا عليك أن تجعليها تستقر بأسرع ما يمكن. وهناك حافلة للمدرسة تجمع التلاميذ كل صباح من بيوتهم، فلا عذر لها في التأخر إذن.» وابتسمت لها فبادلتها إيزوبيل ابتسامتها رغم أنها لم تكن متأكدة من قبول كوري بهذا التدبير. فإن دخول مدرسة جديدة، كان من الأمور المعقدة التي على ابنتها أن تعالجها، هذا إلى أن إيزوبيل فكرت في أن تمنحها فرصة تتعرف فيها إلى هذه المنطقة قبل أن تفرض عليها تغييراً آخر.

عدا ذلك، كانت إيزوبيل مسرورة جداً بالعمل مع الدكتور وبستر. فقد كانت تلك العيادة الصغيرة التي كانت قريبة من منزل آل وبستر نظيفة متألقة، ومجهزة بالمعدات لدرجة أدهشتها. وكان هناك ممرضة متمرنة تدعى ستيلا فوللر وكان لكل منهما غرفة خاصة مفتوحة على قاعة الانتظار. وكانت الحالات الخفيفة تعالج عادة في العيادة، أما الحالات الخطيرة فكانت تحوّل إلى المستشفى في ستراثمور. وأحست إيزوبيل بالارتياح وهي ترى الترحيب بها من الجميع.

قالت الممرضة وهي تدل إيزوبيل على المكتب الذي ستشغله: «أرجو أن تكوني على دراية باستعمال الكومبيوتر. إذ منذ رحيل الآنسة ماكلاي وأنا والدكتور وبستر نجاهد في فك رموز نظام الملفات الذي كانت تتبعه، وذلك دون تحقيق نجاح يذكر. وأرجو ألاّ يكون عندك مانع

في القيام بوقت إضافي في العمل، فقد يكون هذا ضرورياً إلى أن تستقيم معك الأمور.»

أجابت إيزوبيل وهي تنظر إلى أكوام الرسائل والمواد الطبية: «إنني، طبعاً سأقوم بما أستطيعه من العمل.» وكان واضحاً أن فتح هذه العلب والصناديق سيأخذ منها أكثر من يومين.

ولكنها شعرت بالارتياح حين قال الدكتور وبستر إن ابتداءها في العمل سيكون الاثنين القادم. وكان هذا يمنحها وقتاً لتنظيم حياتها قبل حلول العطلة الاسبوعية. فقد كان ما يزال عليها إفراغ حقائبها وصناديقها عندما تصل إلى الشمن. وكذلك تنظيف المنزل وتنظيم محيطه. كانت مصممة على بذل جهدها في سبيل أن يبدو بيتها مريحاً، موحياً بالإلفة.

كانت، أثناء ذهابها إلى العيادة وعودتها، قد رأت شيئاً من معالم القرية. وكان لا بد للتفاؤل من أن يغمر نفسها إزاء هذه المناظر الرائعة التي تحيط بها. فالشمس كانت تتألق على صفحة البحيرة بينما الجبال المكسوة بأشجار الصنوبر تحيط بها من ثلاث جهات. وشعرت بالغبطة لوجودها في هذه القرية التي كانت، مع صغرها وبعدها واختلافها عما ألفته في حياتها، كانت مميّزة وذات جمال خاص. رائع. وابتسمت لمنظر الدخان يتصاعد من المدخنة، فهذا ما كانتا بحاجة إليه... الابتعاد عن غيرة السيدة جاكوبسن. لقد كانت وابنتها محظوظتين حقاً.

وهنا انتبهت إلى أن ابنتها لم تأت لاستقبالها وهي تدخل البيت. لا بد أنها لم تسمعها بالطبع. وربما كانت تنظم

www.liilas.com

حجرتها ولكن هذا التعليل لم يقنع إيزوبيل، ذلك أن كوري لم تكن لتهتم مطلقاً بأعمال المنزل.

ووقفت بباب الردهة المؤدي إلى غرفة ابنتها وأخذت تناديها، ولكنها لم تسمع جواباً، وعندما دخلت غرفة كوري، علمت السبب. انها لم تكن موجودة حتى إنها لم ترتب فراشها.

ولم تشأ أن تسمح للخوف بأن يستولي عليها. فمشت إلى المطبخ حيث مضت تحدق إلى الخارج من النافذة. وقفز الهر يتمسح بساقيها وكأنه يطمئنها إلى وجوده، ولكنها لم تلق إليه بالاً. فقد رأت الحديقة خالية. حتى انها لم تر أياً من الأبقار ذات المنظر المخيف نوعاً ما، ترعى العشب قرب المياه. وكان هناك زورق وحيد يتهادى على مياه البحيرة، ما بعث في نفسها الاطمئنان إلى أنها لا تعيش في منطقة موحشة معزولة عن الناس.

تنهدت وهي تتمتم، آه يا كوري... ومشت عائدة إلى غرفة الجلوس يتبعها الهرّ.

وأنبأتها ساعة الحائط إلى أن الوقت يقترب من الثانية عشرة والنصف، آه. لا... هل من الممكن أن تكون كوري قد هربت؟ ولم تدر إيزوبيل ما عليها أن تفعله في هذه الحالة.

وعادت تهدىء نفسها مرة أخرى. لا بد أنها تصنع كعادتها من الحبة قبة! وماذا لو كانت كوري قد ذهبت تتمشى؟ فهنا ليست لندن ومن غير المحتمل أن يصيبها مكروه ما.

مهما يكن، ما كان لكوري أن تخرج دون إذن، فقد سبق لها أن أخبرتها بأنهما ستخرجان للتمشي بعد الظهر حيث تتعرفان إلى القرية وحيث تبتاعان ما هما بحاجة إليه من

خبز وخضر، كما أنها وعدتها بأن تتصلا بجدتها لتطمئنها إلى وصولهما بالسلامة.

وعادت تتنفس بعمق تحاول تهدئة نفسها... كانت أفكارها تعود دوماً إلى نقطة واحدة وهي، ماذا ستفعل لو لم تعد كوري؟ ومن سيساعدها إذا اختفت ابنتها؟ آل وبستر؟ كلير؟ هذا إذا قبلت الاصغاء إليها... أم ريف؟ وشعرت بازدراء لنفسها وهي تفكر فيه. ولكنها كانت تعرف انه الوحيد بينهم جميعاً الذي قد يهتم بالأمر.

غير أنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن هذا غير معقول. ألم يحذرها آل وبستر أنفسهم بأن لا تصدق كلمة مما يقول؟ فهو لا يمكن الركون إليه في الملمّات رغم كونه مالك القرية. هذا كما أن إيزوبيل لم تتصور أن بإمكانها الاتصال هاتفياً بنصر إنترکادي تطلب المساعدة منه.

ضغطت على شفتها السفلى وقد غمرتها الحيرة والتعاسة هل عليها الخروج للتفتيش عن ابنتها؟ لقد وجدت الباب مفتوحاً عند عودتها، وذلك يعني أنه لم يكن في نية ابنتها الهجران وترك البيت نهباً للصوص.

وعادت إلى المطبخ تحضر معطفها الذي كانت قد خلعته عند عودتها من زيارة آل وبستر، ثم عادت تفتح الباب الخلفي وألقى عليها الهرّ بوتي نظرة تساؤل دون أن يتحرك للحاق بها. وتمتمت إيزوبيل وهي تصفق الباب خلفها: «يا للغادر.» ولكنها ما لبثت أن جمدت في مكانها وهي ترى غلاماً يتسلق سياج الحديقة بنشاط. كان أشقر جميل المنظر وفي سن كوري تقريباً. ولكنها لم تشأ أن يشعر بالحرية في ما أصبح الآن بيتها. وكادت تهتف به

www.liilas.com

محذرة حينما رأت ابنتها تتبع الغلام. ولم تكن كوري بنصف مهارة رفيقها في ذلك، وطبعاً كان ذلك لنقص خبرتها كما فكرت أمها التي أجفلت وهي ترى غصن شجرة يعلق بشعر ابنتها الداكن ليجر قسماً منه.

صرخت الفتاة: «الويل لهذا الغصن المجرم.» ولكن استنكار أمها لهذه الشتيمة البذيئة تصدر عن ابنتها سرعان ما هدأ إزاء ضحكة الأسف التي تبعت تلك الشتيمة المعيبة. ذلك أنها منذ مدة طويلة لم تسمع ابنتها تضحك بهذا الشكل. وعلى كل حال، فقد قال الغلام الذي استدار الآن نحوها ليساعدها قال متذمراً: «ليس من اللائق أن تشتمي هكذا كالأطفال.» هذا بينما كان يلتقط أوراق الشجر من على شعرها، ثم ينفض معطفها الذي لاحظت إيزوبيل الآن أنه أفضل ما عندها من ملابس، بينما كان يتابع قائلاً: «كان عليك أن تكوني أكثر حذراً، فهذا خطأك وليس خطأ أي شخص آخر.»

قالت كوري: «لا بأس، لا بأس.» وشعرت إيزوبيل بالاستغراب وهي ترى ابنتها لا تظهر أيّ غضب لهذا الانتقاد منه لها وهي تتابع قائلة: «لقد كاد الغصن يسلخ جلدة رأسي. وهذا هو كل شيء.»

قال الغلام: «وهذه مبالغة.» ولكن ابتسامته المشرقة عوضتها عن قسوته تلك، كما أنها كانت أليفة لإيزوبيل. ذلك أن شبهه لريف كان ملحوظاً رغم أنه كان أشقر بدل أن يكون أسمر، وقصيراً بدل أن يكون طويلاً. وتساءلت عما إذا كان ابنه. وبللت شفتيها الجافتين، في الوقت الذي أدركت كوري فيه فجأة أن أمها تقف على العتبة. واستعدت أمها

لمواجهة حنق ابنتها، ولكنها لم تتوقع أن تهتف بها هذه قائلة: «مرحباً يا ماما.»

ثم تمتمت وهي تنظر إلى الغلام بجانبها: «لم أتوقع عودتك الآن.»

أجابت الأم: «كلا.» وشعرت الأم أن عليها أن تستغل ارتباك ابنتها هذا لكي تظهر مشاعرها هي، ولكنها لم تعرف ماذا تقول. فهي من ناحية شعرت بالارتياح إذ تجد أن كوري قد وجدت رفيقاً، ولكنها من ناحية أخرى، لم تكن مقتنعة بصواب هذه العلاقة.

أضافت كوري: «بالمناسبة، أقدّم إليك جيم.» ومنح الغلام إيزوبيل ابتسامة مشرقة، وهو يتقدم نحوها مادا يده: «كيف حالك يا سيدة جاكوبسن، أرجو ألاّ يكون القلق قد أدركك. لقد كنا الآن فقط في البحيرة.»

ازدردت إيزوبيل ريقها وقد تذكرت القارب الذي كانت لمحته في البحيرة منذ فترة، وسألته بصوت خافت: «في البحيرة؟»

أومأ برأسه قائلاً: «لقد كانت المياه هادئة تماماً وآمنة في ذلك الحين. نعم، كانت باردة ولكن لم يكن ثمة أيّ خطر إذا أردنا السباحة.»

قالت: «السباحة؟» وألقت بنظرها خلفهما، ورأت القارب الضيق مربوطاً إلى الشاطىء. وتملكها الرعب وهي تقول لابنتها: «أوه، يا كوري. كان عليك أن تنتظري لتسأليني قبل أن تذهبي للتجديف في القارب. فأنا لا أراك مرتدية سترة النجاة. ماذا كنت ستفعلين لو كان القارب انقلب بكما؟»

www.liilas.com

هزت كوري كتفيها قائلة: «لا داعي لهذا الانزعاج يا أمي. ما كان ليصيبني أيّ ضرر.»

قالت إيزوبيل وقد عادت إليها مخاوفها كأشد ما تكون حتى لم تعد تعرف ما تقول: «بل كان سيصيبك الضرر. وإن خروجك دون إذن لا يدل على شعورك بالمسؤولية، فأنت تعلمين أنني ما كنت لأسمح لك بهذا خصوصاً وأنت لا تعرفين السباحة.»

ورد الاثنان في وقت واحد، فقالت كوري: «أمي...»

بينما قال الغلام وهو يستدير نحو رفيقته: «لا تعرفين السباحة؟»

وتوهج وجه كوري خجلاً وما أن رأت إيزوبيل وجه ابنتها، حتى أدركت بالضبط ماذا فعلت. فقد بدا واضحاً أن كوري كانت قد ادّعت أن بإمكانها السباحة وذلك حسب اعتدادها بنفسها، وكان على إيزوبيل أن تعتبر ذلك قبل أن تفتح فمها.

وقبل أن تقول شيئاً تستدرك به الموقف، اندفعت كوري داخلة إلى البيت مارة بها وهي تلقي عليها نظرة لا تعرف الصفح، ثم صفقت الباب خلفها بعنف.

حاولت الأم أن تتمالك نفسها وهي تنظر إلى الغلام تسأله: «هل... هل يعلم أبوك أين أنت؟»

هزّ جيم كتفيه قائلاً: «أمي تعلم ذلك.» وساور إيزوبيل الحيرة والارتباك وهو يتابع قائلاً: «في الواقع كنت أخبرتها أنني ذاهب إلى جدتي. وكنت أرجو أن يسمح لي عمي ريف بركوب الفرس مونلايت. ولكنني انتظرت طويلاً في الاصطبلات فلم يأت.»

فتحت فمها ذاهلة وهي تقول: «هل... ريف هو عمك؟»

أومأ قائلاً: «نعم. كانت أمي زميلتك في المدرسة. أليس كذلك؟ لقد أخبرت كوري بهذا ولكنها لم تهتم.»

قالت: «كلا؟» ولكنها تصورت شعور ابنتها وهذا يخبرها أنه ابن كلير. ولكن جيم لم يكن يشبه أمه مطلقاً ولعل هذا ما جعل كوري تصادقه.

وضع يديه في جيبي معطفه قائلاً: «الأفضل أن أذهب الآن. أخبري كوري أنني لا أهتم فيما لو كانت تحسن السباحة أم لا. وأنا باستطاعتي أن أعلمها. فإن لدى عمي ريف حوض سباحة، وأنا متأكد من أنه سيسمح لنا باستعماله إذا أنا طلبت منه ذلك.»

ولم تشأ إيزوبيل أن تفسد صداقته المحتملة لابنتها، فقالت: «أظن... عليك أن تسأل أمك أولاً.» ولكنها لم تكن متأكدة من أن هذا هو شعور كلير. كما أنها لم تكن تريد لابنتها الاختلاط بآل ليندسي. ومن الأفضل لها أن تجد أصدقاء بين سكان القرية. أولاد لا يبعثون التعقد في نفسها.

قال جيم: «لا بأس.» ابتعد وهو يلوّح لها بيده مبتعداً. ورأته يتجه ناحية منزل آل وبستر، وما لبثت أن دخلت بيتها.

وتوقعت أن تجد ابنتها معتصمة في غرفتها وقد أقفلت بابها عليها في وجه من يريد الدخول. ولكنها رأت ابنتها في غرفة الاستقبال. وكانت تقف أمام النافذة، ولعلها كانت تراقب جيم كما تكهنت أمها. إلا أنها استدارت مبتعدة لحظة دخولها.

www.liilas.com

ومضت لحظة فكرت فيها إيزوبيل أن كوري ما زالت مصممة على عدم الكلام معها. ومع علمها بأنها غير ملومة لكذب ابنتها، فقد شاءت أن تكون متسامحة. ولكن يبدو أن كوري كان لها رأي آخر هي أيضاً. ومع أن التمرّد كان ما يزال يبدو عليها، إلا أنها افتتحت الحديث قائلة: «هل ذهب؟»

أومأت الأم قائلة: «نعم.»

قالت كوري: «يا له من خسع.»

قالت الأم: «لا أظنك جادة بكلامك.»

أجابت: «بل أنا جادة، ماذا قال لك بعد أن... بعد أن...»

قاطعتها أمها: «بعد أن اندفعت داخلة إلى البيت؟» تجهم وجه الإبنة بينما تابعت الأم: «لقد قال فقط أن أخبرك بأنه لا يهتم سواء كنت تحسنين السباحة أم لا، كما أخبرني أيضاً بأنه ابن كلير. وأظنه أخبرك بذلك.»

أجابت بازدراء: «إنه صعب. وهذا لن يجلب إليه الأصدقاء.» وسكتت برهة ثم عادت تقول: «ولكن ريف ليندسي هو عمه. هل تعلمين هذا؟ لقد قال إن ريف يسكن في قصر.»

قالت الأم: «أحقاً؟» وحاولت أن تبدي عدم الاهتمام، ولكنها رأت ألاّ تخوض في حديث يتناول ريف. ولم تكن قد أخبرت ابنتها أنه جاء لزيارتهما ذلك الصباح. فقد أبقت هذا الأمر لنفسها لسبب ما.

قالت كوري متحمسة: «نعم، إنه يعيش في قصر.» وأخذت تتحدث عما كان جيم قد أخبرها به عن قصر الإيرل، قائلة: «إنه يقول ان ذلك القصر هو عريق في القدم وإن عمه

عندما أصبح الإيرل كان القصر بحاجة إلى ترميم. ولكنه تزوج من فتاة ثرية، تماماً كتلك القصص السخيفة التي كانت جدتي تقرأها لي. وكان أن أنفق مبلغاً كبيراً لكي يصبح القصر ذاك في شكل لائق. طبعاً، إن زوجته ميتة الآن. لقد قال جيم إنها ماتت منذ سنتين. ومنذ ذلك الحين لم يعد عمه يحب الانخراط في المجتمعات. ولكن من يلومه إذا كانت السيدة كلير ليندسي من أقاربه؟ ولكنني لم أقل هذا لجيم، فأنا لست غبية تماماً.»

قالت إيزوبيل تسألها: «ولكنك لم تخبريني كيف تعرفت عليه. أظنني طلبت منك البقاء في المنزل إلى حين عودتي؟»

تنهدت كوري قائلة: «حسناً، لقد قلت لي ذلك ولكنني شعرت بالضجر. وفكرت في أن أذهب إليك، ولكنني رأيت جيم خارج العيادة.»

قالت الأم: «لقد فهمت، إن الدكتور وبستر هو جده.»

قالت الإبنة: «أعرف ذلك، ولكنني لا أظنه كان مهتماً لرؤيته. وعندما أخبرته من أنا، عرض عليّ أن يطوف بي أنحاء القرية.»

قالت الأم: «ولكنك لم تفكري في أن تخبريني عما تفعلين. الحقيقة يا كوري...»

قاطعتها كوري قائلة: «حسناً، كنت أعلم أنك لن تقبلي ما قاله لي جيم من أن هنالك قارباً يمكننا استعماله. ولكن ذلك كان في منتهى الأمان. ألم تسمعي ما قاله جيم؟»

قالت الأم: «ولكن جيم ما هو إلا غلام؟»

قالت كوري: «إنه تقريباً في الثالثة عشرة.»

ردت الأم وهي تتنفس بعمق: «إنه غلام كما قلت لك.

www.liilas.com

ولكننا لن نتحدث في هذا الموضوع بعد الآن ما دمت تعدينني بألاّ تفعلي ذلك مرة أخرى.»

قالت كوري باستسلام: «لا بأس.» ولكنها أضافت تقول: «يمكنك أن تري القصر من عند البحيرة. وهذا أحد الأسباب التي جعلته يذهب معي. فالقصر يقوم عند الطرف الآخر من البحيرة. وهو يبدو غاية في الشاعرية! أتظنين أن جيم سيأخذني لرؤيته إذا أنا طلبت منه ذلك؟»

أجابت الأم: «ما أظنه هو أن تبحثي لنفسك عن أصدقاء آخرين وتنسي جيم ليندسي تماماً. إنني أعرف أن أمه كانت زميلتي في المدرسة، ولكن هذا كان منذ سنوات بعيدة، والآن لم يعد بيننا شيء مشترك، وكذلك ليس هنالك تماثل بيننا وبين الإيرل وأسرته.» وسكتت لكي تسمح لابنتها باستيعاب ذلك، ثم أضافت بمرح: «أقترح أن نتناول الآن طعام الغداء، وربما بإمكانك بعد ذلك، أن تريني القرية. بالمناسبة، هل رأيت المتاجر؟ إن أكل الجبن والبيض حسن جداً، ولكنني أذوب شوقاً إلى صينية بطاطا.»

الفصل السادس

أيقظها سجع الحمائم هذا الصباح كالعادة في كل صباح، منذ وصولها إلى قرية إنفركالدي. وكانت إيزوبيل تظن أنها ستعتاد ذلك، ولكن هذا لم يحدث.

ومن حسن الحظ، لم يبد أن هذا كان يزعج كوري، ولكن ربما كان ذلك لأن غرفتها في الطابق الأسفل بعيدة عن اعشاش الحمائم تلك. وعلى كل حال، أخذت ابنتها تنام جيداً منذ انتقالهما إلى هذه القرية. ولا بد أن للهواء الطلق والسير الطويل أثر في ذلك.

لقد سارتا في الأيام الثلاثة الماضية، قدر ما كانتا تسيران في ثلاثة أسابيع في لندن. ذلك أنه لا يوجد مواصلات في هذه القرية كما هو الحال في ستراثمور وفورت ويليام، ومع أن القرية كانت صغيرة، فقد كانت المسافات بين المتاجر المختلفة تأخذ وقتاً طويلاً. خاصة إذا كانت تحمل اكياساً ثقيلة من المشتريات. وكانت إيزوبيل تفكر في ذلك وهي تشعر بآلام في كتفيها نتيجة لما كانت تحمل في اليوم السابق.

ولكن يبدو أن السيدة وبستر قد نسيت وعدها لها بأن تأخذهما في سيارتها إلى ستراثمور. وتساءلت عما إذا كانت علمت عن خروج جيم مع كوري، فكانت بتصرفها هذا، تريد أن تظهر عدم موافقتها على ذلك. أو ربما لم تقبل كلير بأن تأخذهما أمها بسيارتها. على كل حال، فهما لم يشهدا

أثراً لأي من أفراد أسرة ليندسي منذ ثاني يوم وصولهما.

وهكذا كان على إيزوبيل أن تجد حلاً للمسألة، فبدون سيارة، لن يكون في وسعها التسوق من متاجر الأغذية في ستراثمور حتى ولو كانت تعرف أوقات سير الحافلات. فكان من الأسهل عليها التسوق من محلات القرية رغم أن الأسعار كانت أغلى بشكل ملحوظ.

وتمنت لو لم تتسرع ببيع سيارة زوجها بعد وفاته. فقد وجدت أن فائدتها لها قليلة في لندن، وأن ثمنها قد يكون اكثر فائدة. وتساءلت عما إذا كان في امكانها شراء سيارة مستعملة من ثمن بيع السيارة الصالون تلك.

وعادت بإفكارها إلى ابنتها. انها لم تقم بشيء بعد بالنسبة إلى ادخال كوري إلى المدرسة في ستراثمور مع أن عليها أن تبدأ العمل يوم الاثنين. وبعد ما حدث مع جيم، انتابت إيزوبيل المخاوف من أن تقوم ابنتها بعمل أحمق، لقد سبق وقالت لها حماتها انها مجنونة بانتقالها من لندن. وهكذا، أي شيء يحدث لكوري، مهما كان طفيفاً، فإنها ستحملها هي المسؤولية.

كانت كوري تجلس إلى مائدة المطبخ بمعطفها المنزلي، تأكل البوشار، عندما سمعتا صوت سيارة تقف أمام البيت. ورفعت كوري رأسها متسائلة.

شعرت إيزوبيل بالسرور عندما سمعت نقراً على الباب. ومع ان سترتها كانت قديمة وكذلك بنطالها الجينز، إلا أن شعرها كان ما يزال منسدلاً على كتفيها كستارة ذهبية داكنة اللون. جمعته بسرعة فوق رأسها وهي تسير نحو الباب لتفتحه.

كان القادم ريف ليندسي.

وكانت مشكلتها المزعجة هي أنها امضت الأيام الماضية محاولة ان تطرد صورة هذا الرجل من ذهنها. ومع أنها لم تنجح في ذلك تماماً، فقد استطاعت اقناع نفسها بأن من غير المحتمل أن تراه مرة أخرى، وهذا ما سرها تماماً، ذلك أن آخر شيء تريده هو أن تظن كلير أو أبوها، بانه استطاع أن يوليها اهتمامه بها.

قال لها: «مرحباً.» وأثار غيظها أن رأته مايزال بنفس الجانبية التي تعهدها فيه، وكان مرتدياً بنطالاً قاتم اللون فوقه كنزة صوفية سوداء عالية العنق، وقد علق على كتفيه سترة حمراء داكنة من الشمواه كما أن شعره كان مايزال طويلاً. وأدركت الآن، بعد ما عرفته عنه، سبب تلك الخطوط التي تحيط بعينيه.

أجابته: «مرحباً، أية خدمة؟»

رمقها بنظرة شاملة، وتملكها القلق على شعرها غير الثابت والمكوم فوق رأسها. وما لبثت ان شعرت بحماقتها اذ راحت تخمن ما يكون رأيه بها.

قال وهو يرمقها بنظرة غريبة: «فكرت في أنك قد تكونين بحاجة إلى مساعدة ما. فأنا ذاهب إلى ستراثمور ولا أدري إذا كنتما ترغبان في المجيء معي.»

لهثت إيزوبيل قائلة: «إلى ستراثمور؟»

فلمعت عيناه سخرية وهو يجيب: «إلا إذا كان هناك مكان آخر تريدين الذهاب إليه.» وساورها الضيق... أفما كان من الأكثر أماناً لها أن تبقى بعيداً عن التحدث مع الرجال؟ ولكنها فهمت تماماً ما قصده من تلميح.

www.liilas.com

ولأن الضيق انتابها منه ومن نفسها، كان جوابها بعيداً عن المودة، فقالت وهي تهم باغلاق الباب: «لا أظن ذلك. شكراً لك. إن عرضك هذا في منتهى الشهامة، ولكنني لا أظنه لائقاً تماماً.»

قال بشيء من الخشونة: «ليس لائقاً؟»

أسرعت تصحح قولها: «أعني ليس مناسباً.» وأخذت تغلق الباب تدريجياً متجاهلة شهقة كوري المذعورة خلفها، بينما تتابع كلامها بابتسامة مهذبة: «واشكرك لعرضك هذا، ولكن...»

ولكن وضعه قدمه على العتبة اسكتها وهو يقول: «لا يهمني رأيك في تصرفي هذا أو ما كان وضعه في رأسك بعض الأغبياء عن اعتبارات اجتماعية حمقاء، وأظن من الصواب بالنسبة إليك، ألاّ تضايقينني فأنا، كما تعلمين، صاحب هذا المنزل.»

تصلب جسدها وهي تجيبه قائلة: «إذا كنت تظن...»

قاطعها بضجر وهو يستند بكتفه إلى الباب: «إنني لا أظن شيئاً. اسمعي، هل أذهب ثم أعود في وقت آخر لنتابع حديثنا هذا؟ أم أنك تكرهينني إلى حد تفضلين معه أن تستقلي الحافلة؟»

رأت أن وقوفه في الباب بهذا الشكل يسمح للمارة بأن يلحظوه، فقالت له وهي تفتح الباب على اتساعه: «من الأفضل أن تدخل.»

وهتفت به كوري بحماس: «مرحباً.» ولم تهتم لمعطفها المنزلي الحائل اللون، ولا لشعرها الأشعث، فقد بدا عليها السرور البالغ لرؤية ريف مرة أخرى، وتمنت إيزوبيل لو أنها بمثل انطلاقها ذاك.

وهتف وهو يشق طريقه نحوها بخفة طبيعية: «كوري.» وأخذت إيزوبيل تنظر إليه وهي تحاول أن تذكر نفسها بشخصيته. وكان هو يتابع قائلاً: «لقد سمعت انك كنت برفقة ابن أخي.» وكانت ابنتها قد جلست على ذراع الكرسي بحركة مسرحية بينما كان هو يتابع قائلاً: «لقد اخبرني جيم بأنه اخذك إلى البحيرة. يبدو أن تأثيرك كان قوياً على ذلك الفتى.»

قالت كوري بكل خجل وبراءة: «أحقاً؟» وعجبت إيزوبيل لنفاق ابنتها ذاك. فقد كان جلياً أنها شعرت بالزهو لهذا المديح. فقد كانت الطريقة المرتجلة التي كانت نبذت بها صداقة جيم، ما هي إلا نوع من حماية النفس.

ولم تكن هي نفسها غافلة عن أنها تتبع نفس الطريقة مع آل ليندسي.

وعاد ريف يقول: «حسناً، إن اجتماعكما لم يكن سراً.» وألقى من فوق كتفه إلى إيزوبيل بنظرة ذات معنى وهو يقول: «اخبريني، هل رأيت كلير؟»

كان المعنى في سؤاله هذا جلياً. وتقوست كتفا إيزوبيل. لا عجب في أنهما لم تشاهدا جيم مرة أخرى مادامت أمه وراءه. وقالت: «كلا. إنني...»

ولكن كوري قاطعتها باستنكار: «نعم. لقد رأيناها يا أمي.» وأدركت إيزوبيل للتو بأنها ارتكبت خطأ. بينما اندفعت كوري تصف بإسهاب زيارة كلير لهما ليلة وصولهما من السفر، وهي تقول: «لقد كانت فظة تماماً مع أمي.» وكانت إيزوبيل في هذه الأثناء، تلوم نفسها لعدم اخبارها ابنتها بزيارة ريف الثانية لهما. ذلك ان أية كلمة خاطئة منه تعلم منها كوري بزيارته تلك، ستحملها على الشك بأمها.

www.liilas.com

وأخيراً قال ريف: «فهمت.» وشعرت إيزوبيل، وعيناه المزعجتان تنصبان عليها بالرغبة في الابتعاد. لقد فات أوان اخبار ابنتها الآن بسبب كتمان زيارته لهما.

وقالت كوري تحدثه: «انها زوجة أخيك، أليس كذلك؟» وخوفاً من أن تتدخل ابنتها في أمور شخصية، تدخلت هي قائلة: «لا أظن أن لنا شأناً بالعلاقة التي بين السيدة كلير ليندسي و... زائرنا.» ورمقت ريف بنظرة سرعان ما حولت بعدها عينيها عن عينيه، وهي تتابع قائلة لابنتها: «لقد حان لك أن ترتدي ثيابك يا كوري. إننا لا نريد أن يظن الناس أننا نمضي الصباح بملابس النوم، أليس كذلك؟»

عبست كوري قائلة: «الآن؟»

قالت أمها بحزم: «نعم، الآن.» وتمنت ألاّ تختار ابنتها هذه اللحظة لتصطدم مع أمها، امام عيني ريف ليندسي.

ولكن، لأمر ما، قررت كوري أن تطيع أمها، فالتفتت إلى ريف قائلة: «ولكنك ستبقى هنا إلى أن أعود، أليس كذلك؟ هل حقاً ستأخذنا إلى ستراثمور؟» وكان أن رد الاثنان في وقت واحد، إذ قالت إيزوبيل: «كلا...»

بينما قال ريف: «إذا أرادت أمك.» ومع أن الأم رمقت ابنتها بنظرة تحذرها من أن تعارض، إلا أن كوري لم تشأ أن تخسر فرصة كهذه، فقالت له متجاهلة تحذير أمها: «ان أمي تريد ذلك حقاً. فقد كانت السيدة وبستر وعدت بأخذنا لكي تقوم أمي ببعض التسوق في المتاجر، ولكنها لم تفعل. هل تظن أن ذلك بسبب تعارفنا أنا وجيم؟ أراهن على أنها لم تسر بمعرفة ذلك.»

هتفت بها أمها: «كوري.»

وكان غضب إيزوبيل واضحاً الآن. ولكن ابنتها لم تتراجع بل تابعت تقول متحدية: «نعم، أراهن على ذلك.» ثم مشت نحو الباب قائلة للزائر: «سأراك في ما بعد. انني لن أتأخر.» ثم اغلقت الباب خلفها.

وساد صمت حافل. وتملك الارتباك إيزوبيل. وعندما أخذ الهر بوتي يتمسح بساقها، وجدت ما تشغل به نفسها ويديها إذ انحنت تعبث بأذنيه، حتى إذا ما وقفت كانت قد تمالكت نفسها، فقالت وهي تسير نحو المطبخ: «إني آسفة، فليس لدى كوري الحق في هذا الكلام. هل اصنع لك فنجاناً من القهوة؟»

أجاب وهو يتبعها نحو المطبخ، ثم ينظر من النافذة إلى الخارج: «كلا. شكراً. هل أصبحت مستقرة الآن؟»

أجابت: «أظن ذلك. ان الحياة هنا مختلفة طبعاً، ولكننا توقعنا ذلك. ويبدو أن كوري ستحبها. انها تنام جيداً الآن وتأكل كالحصان. واشكرك لتدبيرك بشأن حصولنا على الحليب والبيض دون حاجة بنا إلى احضاره من الدكان. علينا أن ننتبه إلى أنفسنا من ناحية شهيتنا المتزايدة لأكل البيض وإلا فستزداد كمية الكولسترول في أجسامنا و....»

قاطعها قائلاً: «ولماذا هذه العصبية؟»

وأسكت صوته الهادىء، شلال الكلام ذاك الذي تدفق من فمها لكي تشغل نفسها عن التفكير، لتدرك مبلغ سخافتها. فهو لم يكن مهتماً بثرثرتها هذه، خصوصاً وهي تبالغ في تكرير شكرها لأمر تافه كهذا. لقد كان كل ما نجحت فيه هو جذب انتباهه إليها، وهو الشيء الذي كانت تحاول أن تتجنبه.

قالت: «انني لست عصبية.. ولكن كل ما في الأمر هو

www.liilas.com

أنني أظن وجودك هنا هو شيء غير مناسب. أعني...»

قاطعها قائلاً: «لماذا؟»

واستند إلى حوض الغسيل، عاقداً ذراعيه فوق صدره ومضى ينظر إليها بعينين باردتين. كان يبدو مسترخياً، ولكنه لم يكن كذلك في الحقيقة. وتوترت اعصابها توقعاً لما سيبدو منه بالنسبة لمزاجه هذا.

أجابته: «انني... ذلك لأنك بذلك المركز.» وبدت السخرية على شفتيه، وكان في زاوية الشفة السفلى منهما أثر جرح قديم.

قال فجأة: «ألا اعجبك يا ترى؟»

صدرت عنها آهة مرتجفة، قالت بعدها: «لا تكن أحمق.»

قال: «وهل هذه حماقة؟» ولم تدر بم تجيب. وأخيراً قالت وهي تعجب لهذا الوضع الذي وجدت نفسها فيه: «إنني لا أعرف عنك شيئاً.»

قال وهو يهز كتفيه: «ليس ثمة الكثير عني لكي تعرفيه. فأنا رجل غير متزوج، وأعيش في قرية، وأمي تسكن معي.»

قالت بسرعة: «انك تعيش في قصر إنفركالدي. لقد اغفلت ذكر ذلك.»

ضاقت عيناه وهو يقول: «وهل هذا مهم؟»

تنهدت قائلة: «إنه مهم بالطبع، ثم انك أرمل.»

توترت ملامحه وهو يقول: «يبدو أنك تعلمين عني اكثر مما تظنين.»

أجابت: «ولكن هذا صحيح. أليس كذلك؟»

قال: «إذن...»

قالت: «إذن، لماذا تقول إنك غير متزوج؟»

قال: «ولكنني غير متزوج فعلاً.»

قالت: «ولكنك كنت متزوجاً.»

هزّ كتفيه قائلاً: «لا بأس. كنت متزوجاً. وأي فرق في ذلك؟»

لم تعرف بماذا تجيبه. وأخيراً تمتمت قائلة: «لا شيء.»

قال بلطف: «وهذا يعود بنا إلى السبب الذي يجعلك ترفضين دعوتي. وابنتك تقول انك ترغبين في القيام بالتسوق في ستراثمور. وقد خطر ببالي انك ربما ترغبين في زيارة المدرسة المحلية. ان كوري ستذهب إلى المدرسة المحلية، أليس كذلك؟»

تنفست إيزوبيل بعمق، ثم أشاحت بوجهها عنه، وقد وجدت ان باستطاعتها أكثر التعبير عما تريد قوله، عندما لا تكون ناظرة إليه. ثم قالت: «انني موظفة عند والدكلير. وقد ابتدأت العمل نهار الاثنين. وأظن أنه ليس من الصواب أن اجعل آل وبستر يستاؤون مني، ولا... ولا أظنهم يوافقون على وجودك هنا.»

وساد الصمت لحظة حتى ظنت أنه لن يجيبها. ثم إذا به يسألها بصوت متوتر: «وماذا أخبروك عني غير هذا؟»

قالت: «أنا... لماذا... لا شيء.»

قال: «انك لا تحسنين الكذب، يا سيدة جاكوبسن.» كانت لهجته تنضح سخرية. وأدركها الذعر وهي تشعر به يقف خلفها. وتابع قائلاً: «استطيع أن أخمن ما الذي حدثك به جون ولورا وبستر عني. لقد قالا انني شخص غريب الأطوار وغير مسؤول. أليس كذلك؟»

حركت إيزوبيل رأسها بسرعة، وانزلق شعرها المرفوع على رأسها إلى جانب. فرفعت يدها تثبته بضيق وهي تقول:

www.liilas.com

«ان ما تفعله أو لا تفعله، ليس من شأني، ولكن ليس من الحكمة ان أخاصم رؤسائي في العمل. أو... أو أشجع كوري على أن تظن أن من الممكن أن تكون أنت صديقاً لنا.»

تعثرت وهي تبتعد عنه، بالهر الذي كان متكوراً بجانب رجليها، وفي محاولتها حماية نفسها من الوقوع، تمسكت بالصوبا دون وعي منها. وكان أن صعقها ألم الحريق في راحتها ما جعلها تهتف وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «آه، تباً لهذا... تباً.» وأطلق ريف شتيمة وهو يقول لها: «دعيني أرى.»

مدت يدها إلى صنبور الماء البارد حيث جعلتها تحت الماء.

وأحست بشعرها ينزلق إلى رقبتها، فالتفتت إليه قائلة: «لقد انسدل شعري.»

أجاب: «أعلم ذلك.»

سألها بلطف: «أمازلت تشعرين بالألم؟» وتبلد ذهنها لحظة فلم تدرك ما الذي يتكلم عنه.

قالت له بلهجة متوترة: «أظن من الأفضل أن تذهب.»

قال: «إذا كانت هذه هي رغبتك حقاً.»

وكان صوته جامد التعبير. وأغاظها منه أنه لا يريد أن يعتذر. فقالت: «وهل تشك في ذلك؟ ماذا تظنني؟»

أطبق شفتيه بقوة، ثم قال: «إن ردة فعلك مبالغ فيها.»

قالت: «أنا؟ ولكنك جئت إلى هنا دون دعوة، وتصرفت وكأن اقامتي في بيتك يعطيك الحق في أن تفرض ارادتك عليّ، ثم بعد ذلك تقول إنني ابالغ في ردة الفعل تجاهك؟ إنني آسفة، ولكن إذا كان هذا ما تفكر فيه...»

قاطعها قائلاً: «لا تكوني حمقاء.» وأسكتتها كلماته

الفظة، وحبست أنفاسها إزاء غضبه هذا الذي لم تعتد عليه. وتابع يقول: «وما الذي حدث، لا شيء يستدعي ردة فعلك هذه. فماذا تريدين الآن؟ الاعتذار؟»

اهتزت إيزوبيل، ثم قالت: «هذا أقل ما يمكن.» فلوى شفتيه وشعرت هي بالأسى وهي تدرك مقدار الإساءة التي ألحقتها به. وملأها الألم واليأس لدى تفكيرها في أنها ربما تسببت في هدم هذه العلاقة التي نشأت بينهما.

وأخيراً، قال باكتئاب وهو يرد شعره إلى الخلف: «لا بأس. ما كان لي أن أتجرأ والمعرفة بيننا مازالت سطحية. انني اعتذر فسامحيني.»

ازدردت ريقها، ثم قالت: «اشكرك.»

ولكن عينيه كانتا قد أصبحتا قاسيتين كالفولاذ. وانتظرت منه أن يخرج، فقد شعرت بأنها ارتكبت خطأً بالغاً باتهامه في أن حركاته كان يحدوها دوافع خفية. وكانت خائفة من أن تخونها اعصابها إذا هو بقي مدة أطول.

وأخيراً قال: «أظن أن هذا يعني أنك لن تأتي معي إلى ستراثمور؟»

حدقت فيه بذهول قائلة: «لا أظنك تعني أنك مازلت تريد أن تأخذنا بسيارتك؟»

أجاب: «ولم لا؟»

قالت: «حسناً، لا أظنك تكن لي أي مودة بعدما قلته لك.»

رد عليها قائلاً: «ما الذي جعلك تظنين هذا؟» وعندما لم تجب قال: «إذا غيرت رأيك فاتصلي بي هاتفياً واتركي لي خبراً. رقم هاتفي مدوّن في دفتر الهاتف.»

www.liilas.com

الفصل السابع

«إن الحركة لك الآن يا ريف.»

كانت هذه هي المرة الثالثة التي تنبهه فيها غريس كالدر بلهجة متضايقة، وانتبه هو إلى أن عينيه كانتا شاردتين في الفضاء بدلاً من لوح الشطرنج بينهما. وكان هذا يعني أن أفكاره كانت في مكان غير ما هما فيه من اللعب، ولم تكن غريس من نوع النساء اللاتي يتسامحن في مثل هذا الأمر.

وعاد إلى نفسه، وقد أدرك أنه لم يكن منتبهاً إلى رفيقته ليقول: «إني آسف.» ثم أخذ يحدق في اللوح بين يديه، وما لبث أن حرّك حجر الشطرنج في الوضع الذي وجد أن بإمكانه في ما بعد، أن يحاصر حجرها، وهو يقول: «كنت أفكر.»

ردت عليه وهي تكتسح حجره: «نعم، لقد كنت كذلك. ولكن ليس في اللعب.»

ونظر هو إلى لوح الشطرنج غير مصدق. لقد كان هذا صحيحاً، إذ أنه في عجلته لكي يبرهن لها أنه كان منتبهاً وليس شارد الذهن، قد جعلها تهزمه، وكانت ملامحها تعبّر عن إدراكها لذلك هي أيضاً.

واستند بظهره إلى مقعده، وهو يقول بابتسامة يتكلف بها التعبير عن الندم: «إنك أكثر مهارة مني.»

أجابت: «كل ما في الأمر أنني ركزت انتباهي في اللعب. فأنت أمهر مني بكثير، يا ريف، وأنت تعلم ذلك. لقد كنت في طريق الانتصار إلى أن فقدت اهتمامك.»

وكانت تخفي ضيقها بذلك وهي تتكلم، وتخلل هو شعره بأصابعه. كان بإمكانه أن ينكر ذلك، ولكنه كان يعلم بأن هذا صحيح، بالنسبة لفقده اهتمامه على الأقل. ذلك أنه في الاسبوعين الماضيين، كان يجد صعوبة في أن يركز اهتمامه على أيّ شيء. وبينما كان يفترض أن تعيد أسرته ذلك إلى عدم شعوره المعتاد بالحماس، كان هو يعلم أن ما يعاني منه الآن لا صلة له بزوجته الراحلة.

بالعكس، فقد مضت أيام منذ فكر في سارة لآخر مرة، وكان لهذا بالذات أن يكون سبباً في التركيز. ذلك أنه لطالما استيقظ في الصباح وقد غمره الشعور بالذنب لأنه مهما فعل، أو أساء إلى نفسه، فإنه ما زال حياً بينما زوجته وطفله تحت التراب.

ولكن ذلك العذاب قد توقف الآن منذ أكثر من اسبوع، ذلك العذاب المبرح الذي كان يشعر به كلما استيقظ من النوم والذي أصبح جزءاً من حياته. وربما كان توقف هذا النوع من تعذيب النفس، هو السبب في حالة القلق التي أصبح يعانيها. ولكنه لم يكن مقتنعاً بذلك تماماً فقد كان يميل إلى الاعتقاد بأن شخصاً ما، وليس شيئاً ما، هو السبب في هذا التطوّر. وكان يعرف تماماً من هو ذلك الشخص رغم أن ذلك كان شيئاً يدعو إلى السخرية.

قالت غريس فجأة: «لما لا نذهب فنتمشى؟» وعاد صوتها ينبهه من استغراقه بلهجتها هذه التي تحاول بها الاستحواذ على انتباهه. فقد كانت غريس امرأة ملحاحة، وكان في تظاهر أمه بإقناعها بالبقاء بعد رحيل عمها السير مالكولم، كان في ذلك دليل على أنها راضية عن نشوء علاقة بينهما.

ولكن والدته كانت على استعداد لأن توافق على أية امرأة تتمكن من إعادة ابنها إلى حالته الطبيعية كما أخذ ريف يفكر متهكماً، هذا إلى أنها كانت ما تزال شابة، وثرية وبالطبع عازبة، وهذه صفات كانت كلها في غريس.

وكان قد تساءل عن السبب الذي جعل السير مالكولم يحضر إبنة أخيه معه إلى إنفركالدي، ذلك أن عطلة اسبوعية تنحصر في الصيد والقنص، لا يمكن أن تلائم امرأة شابة مثل غريس. وكان هذا صحيحاً لأنها لم تشاركهما ذلك.

وكذلك ريف لم يفعل، ولكن ما دام الضيوف كانوا موجودين، فقد كان بإمكانه أن يدع أمر العناية بهم إلى أخيه كولين. فقد كان هو وزوجته يحضران دوماً في مثل هذه المناسبات، وكان ريف راضياً عن أن يقوم أخوه بدور المضيف أثناء غيابه هو.

ولكن، عندما انتهت العطلة ورحل الضيوف، أصبح من الصعب عليه أن يهمل ضيفة والدته. فقد كانت غريس باقية. وكان لا يخامره الشك في أنها إنما كانت تتطلّع إلى أن تصبح كونتيس أوف إنفركالدي سيدة هذه الأملاك. ذلك أنه لم يسمح للغرور بأن يجعله يظن بأن ما جذبها منه هو جاذبيته التي لا تقاوم. فهي لم تكد ترى منه أي تهذيب أو التفات، ولا بد أنها علمت أنه لا يشعر نحوها بأيّ اهتمام. فهو لا ينوي الزواج مرة أخرى. لا ينوي مطلقاً أن يجتاز مرة أخرى، محنة كالتي مرت عليه حين ماتت سارة. وفي الواقع أن كل ما كانت والدته تسعى إليه، هو ولد من صلبه تستمر به سلالته.

هذا إلى أنه لا يكاد يعرف غريس. وقطب حاجبيه وهو

يفكر في ذلك، ولوى شفتيه... ذلك أنه يوجد امرأة أخرى لا يكاد يعرفها... ولكن، بالنسبة إلى هذه المرأة، يبدو أن هذا الأمر لا يبدو مهماً...

ولم يسرّه التفكير فيها، فإن آخر لقاء بينهما قد بعث النفور إلى نفسه. لا بد أنه كان مجنوناً في تصرفه ذاك. وتجهم وجهه لهذه الذكرى. لقد كان معها كل الحق في الاستياء من تصرفاته. كل الحق في اتهامه بأنه يستغل وضعها، ومن ثم تطرده من منزلها.

ولكن، لماذا هي بالذات؟ فهي مجرد امرأة عادية قد تكون لائقة الشكل إلى حد كاف، ولكنها لا تثير الناظر بأيّ شكل كان. فقد كان لها عينان لطيفتان ولكنهما لم تكونا تختلفان عن أعين من عرف من النساء، بشكل ملحوظ. كما أن أنفها كان بارزاً قليلاً وإن لم يكن طويلاً، ولكنه كان عريضاً نوعاً ما نظراً لاستدارة وجهها، كان بالإجمال، لا يلفت النظر.

ولكن شعرها كان جميلاً بالطبع، غير أنه كان من الطول بحيث لا يمكن تركه مسترسلاً. وكانت هي، عادة تجعله ضفيرة ضخمة، إلا عندما تحاول رفعه فوق رأسها، كما كان عندما إنسدل على كتفيها في آخر مرة كان معها.

«ريف...»

«أوه...»

«ريف... هل سمعت ما قلت؟»

وتساءل عما يدعوه إلى تذكر كل التفاصيل الدقيقة لملامح امرأة يعترف بأنه يراها عادية تماماً. إن هذا سبب آخر يجعله يبتعد عنها بكل تأكيد. فهي خطرة، بالنسبة لحياته، لمستقبله، لسكينته النفسية.

www.liilas.com

«ريف... هل سنخرج أم لا؟» وأعاده صوت غريس المستاء إلى وعيه.

قال: «نعم، إذا شئت.»

شعرت غريس بالسرور لنزوله عند رغبتها رغم ما أبداه من عدم الحماس لذلك، فهتفت وهي تقفز من مكانها: «حسناً. سأحضر معطفي ولن أتأخر.»

قال بجفاء: «لا تستعجلي.» ولكن ذلك كان بعد خروجها من الباب ليبقى وحده في صالون والدته الجميل. لقد التزم بكلمته الآن، رغم أنه لم يكن مسروراً بذلك. وعلى كل حال، بما أن الظلام سيحل بعد ساعة أو نحوها، فقد كان يرجو أن تكون، لذلك، نزهتهما قصيرة. ونهض يمشي على السجادة الفرنسية التي يقال إنها تعود إلى ماري انطوانيت نفسها، وكانت جدته قد اشترتها قبل أن تولد أمه بسنوات. وعندما دعته إلى الصالون هذه الأمسية، لم يكن يعلم أن هدفها كان أن تتركه مع ضيفتها، حيث أنه كان يتجنب تناول الطعام معهما في غرفة الطعام الرئيسية. وعندما وقف عند النافذة يرمي ببصره نحو الجبال البعيدة، أخذ يتساءل إلى متى تدوم هذه اللعبة من جانب أمه، لا بد أن تعلم أنه غير مهتم، وأنها لن تستطيع إقناعه بتغيير رأيه. إذ لن تكون كونتيسة أخرى في إنفركالدي. وجيم، إبن أخيه، هو الذي سيرث اللقب.

وعندما نزل إلى الطابق الأسفل، وجد كلير في القاعة، وكان يبدو أنها وصلت لتوّها، إذ كانت تناول الخادمة شالها وقفازيها. وكانت اللآلىء التي تحيط بها عنقها تتألق، بشكل هادىء، في أشعة الشمس المتسربة من النافذة العليا. وانتابه شعور ساخر وهو يراها ترمقه من جانب عينها وقد

أطبقت شفتيها بشدة. فتصرفاتها نحوه هي جافة على الدوام ولا يعجبها أي شيء يصدر عنه. وقبل أن تصبح زوجة الإبن الأصغر للإيرل والكونتيس أوف إنفركالدي، كان الوالدان يعلمان أنها كانت ترغب في الزواج من الإبن الأكبر، فقد بقيت سنة كاملة تحاول استعمال كل الأساليب التي تعرفها، والتي لا تعرفها، للفت نظر ريف. ولم توجه اهتمامها إلى كولين إلا بعد أن ابتدأ الناس يتكلمون، مدعية أنه هو من تريد، بينما كان الجميع يعلمون العكس.

ولكن ذلك كان منذ سنوات كثيرة، وقد محى الزمن تلك الأحداث التي رافقت زواجها. وهذه الأيام كانت معروفة ببساطة بأنها زوجة أخ الإيرل، النبيلة السيدة كولين ليندسي. وبينما كان ريف يشعر بأنها ما زالت تخفي في نفسها الاستياء، كان يبدو عليها السرور بهذا اللقب.

قالت تخاطبه بلهجة شخص راشد يتحدث إلى صبي: «ريف، هل أنت خارج؟»

ولما كان مرتدياً ثياب الخروج، فقد اعتبر ذلك واضحاً. ولكنه قال مازحاً: «إنني أفكر في القيام بنزهة قصيرة. هل الجوّ بارد في الخارج؟»

أجابت وهي تدفىء يديها أمام المدفأة: «إنه بارد جداً. هل... هل غريس خارجة معك؟»

أجاب وهو يقف بجانبها أمام المدفأة: «نعم. أتريدين أن تأتي معنا؟»

نظرت إليه بذعر قائلة: «ماذا؟» وعندما رأت السخرية في عينيه، تصلّب فمها وهي تقول: «أوه... كلا. شكراً، يا ريف، فأنا مشغولة جداً.»

www.liilas.com

رفع حاجبيه الأسودين وهو يسألها قائلاً: «أحقاً؟ مشغولة بماذا؟»

أجابت: «جئت لأرى والدتك بالنسبة لمعرض الربيع، فلا بد من القيام بالاستعدادات لذلك. وبما أن زوجة صاحب الأعمال الخيرية في المستشفى...»

ابتسم متهكماً وهو يقول: «إن قلبك كبير، يا كلير.»

فقالت: «حسناً، لك أن تسخر ما شئت، ولكن لا بد لأحد من أن يحافظ على هذه العادات، ويهتم بالتقاليد.»

قال: «وأنت المرشحة المثلى لمثل هذا العمل، أليس كذلك؟ للأسف أن كولين لم يرث اللقب، وإلا لكنت كونتيسة مثالية معصومة من الخطأ.»

تألقت عيناها وهي تقول: «إنك تستمتع بتجريحي، أليس كذلك يا ريف؟ حسناً، انتبه إلى أن لا تتلقى جزاء من نفس عملك هذا، يوماً ما. إن ثمة امرأة في مكان ما، ستمحو ابتسامة النصر هذه عن وجهك.»

وجد ريف نفسه يجيب بعنف لا مبرّر له: «هذا لن يكون.» ذلك أن تذكره لأفكاره التي كانت تراوده منذ فترة، كان كافياً لأن يكسو ملامحه بالعبوس، وهو يتابع ساخراً: «لقد جعلتني أفكر في النساء يا كلير.» وكان يريد أن يعيّرها بما كان حدث بينهما مرة، ليغطي بذلك عدم ثقته بجوابه ذاك لها، قال متابعاً: «أخبريني، هل أخبرت زوجك قط عن عطلة الأسبوع تلك التي كنا أمضيناها في افيمور؟»

تملك الجمود ملامحها وهي تجيبه قائلة: «لم يحدث شيء في افيمور.»

ولكن ريف لم يسكت، فقال بخبث: «أظن الأمر كان غلطتي

أكثر مما هو غلطتك.» ولكنه ما لبث أن أدركه الضجر من هذا السجال، فسألها قائلاً: «هل جاءك خبر من جيم؟»

تنفست بعمق وقد تمالكت نفسها، ثم قالت: «أتعني منذ عودته إلى المدرسة؟ نعم. لقد تلقينا رسالة منه أمس.»

سألها: «وهل هو مستقر الآن؟»

أجابت دون أن تستطيع تمالك حنقها: «وما الذي لا يجعله مستقراً؟ فهناك أصدقاؤه. وأظنه كان يشعر بالوحدة أثناء الإجازة هنا. فأولاد القرية هنا متعصبون ضدّ الغرباء.»

سألها ببراءة: «وماذا بالنسبة إلي كوري جاكوبسن؟ لقد علمت أنهما أمضيا بعض الوقت معاً. وقد كنت أنت وأمها صديقتين. لماذا لا يجب أن يكون ولداكما نفس الشيء هما أيضاً؟»

تصلب جسد كلير وهي تجيبه قائلة: «إنني أعرف ما الذي تحاوله، يا ريف. ولكن هذا لن يفيد. فإنك لن تستطيع تجريحي هذه المرة. ذلك أنك تعلم بقدر ما أعلم أنا، أن كوري هي رفيقة غير مناسبة مطلقاً لجيم. وحسب قول أمها، كان السبب الرئيسي الذي جعلها تترك لندن هو سلوك كوري. فالفتاة كانت عديمة الشعور بالمسؤولية، كما يبدو بالنسبة إلى السرقة...»

قال: «السرقة؟»

أجابت: «السرقة من معروضات المتاجر، ثم الغياب عن المدرسة، ولا أحد يعلم ماذا بعد. وكما فهمت، لم تتغير بعد وصولها إلى هنا.»

سألها وقد فارقه المزاح: «ماذا؟ ما الذي قالته لك السيدة جاكوبسن؟»

هزّت كلير رأسها قائلة: «إنها لم تقل لي شيئاً. فأنا رأيت إيزوبيل مرتين فقط منذ ابتدأت العمل في العيادة. ولكنني

www.liilas.com

أعرف أنها سبق وتلقت مكالمة هاتفية من الناظر في ستراثمور يشكو من سلوك كوري. وأبي يرى أن الفتاة خارجة عن الانضباط تماماً.»

سألها: «ولماذا؟»

هزت كتفيها قائلة: «من يعلم؟ إنها ليست مشكلتي فأنا لا أختلط بهما. وأبي يقول إن الفتاة تستغل غياب أمها في العمل. ولكن ما دامت إيزوبيل تقوم بعملها...»

أكمل ريف جملتها ساخراً: «فهو لن يطردها. هل لديك آراؤك الخاصة، يا كلير، أم أن أباك هو الذي ينصحك بالنسبة لكل الأمور؟»

شهقت قائلة: «لا أريد أن تنتقد أسرتي.»

قال: «ولما لا؟ فهما لا يتورعان عن انتقادي أحياناً.»

قالت: «هل يمكنك لومهما؟ إنك في السنتين الأخيرتين لم يصدر عنك ما يجعلهما يعجبان بك، ولولا أن جيم...»

وهنا، سكتت فجأة، ولكن ريف لم يسكت فقال: «هيا، تابعي كلامك يا كلير. ماذا سيكون لولا جيم؟» ولمعت عيناه كالفولاذ البارد وهو يتابع: «هيا، انطقي. ما هو دور جيم هنا؟»

ارتجفت يدا كلير وهي تجيب: «إنني... لا شيء.»

وحوّلت عينيها عن عينيه، فاقترب منها وهو يقول وقد ضاقت عيناه: «إنني لا أصدقك. إنك تفكرين في أنه لولا جيم لما كان هناك وريث لانفركالدي، أليس كذلك؟ حسناً، سامحيني يا كلير، ولكنني كنت أظن أن هذا بالضبط هو ما تريدينه!»

اندفعت تقول بعد إذ لم تعد تهتم بما قد يظنه بها: «هذا صحيح. أتعرف لماذا؟ لأنه سيقوم بالعمل بشكل أفضل مما يقوم به عمه الآن.»

ابتعد عنها ريف وهو يقول بصوت خافت: «أحقاً؟» ثم كرر قوله مرة أخرى بشبه سخرية: «أحقاً؟ سنرى.»

وأنهى هذا النقاش صوت خطوات غريس على السلم ولم يكن ريف يظن أنه سيشعر بالسرور لرؤية تلك المرأة، ولكنه الآن كان متلهفاً إلى استنشاق الهواء الطلق، بعد أن سئمت كلمات كلير جوّ الغرفة. ومع أنها لم تكن أول مناقشة حدثت بينهما، فقد كانت الأسوأ. وكانت المشكلة هي أنه لم يكن بإمكانه أن يؤذي كلير دون أن يصل الأذى إلى أخيه كولين هو أيضاً. وحبه لأخيه كان أكبر من أن يسمح له بالقيام بأي ما من شأنه تحطيم سعادته الزوجية.

قالت غريس مترنمة بمرح: «هل أنت مستعد يا عزيزي؟» وهذه المرة فقط، سرّ ريف بهذا التدليل يصدر عنها له بعد أن رأى النظرة المفترسة التي رمقت بها كلير تلك المرأة. أما قول غريس لها: «ما أجمل أن أراك مرة أخرى، يا كلير.» فقد وقع على أرض صخرية.

قال مجيباً غريس على سؤالها: «طبعاً. لقد كنت وكلير، نتحدث في العلاقات الأسرية، أليس كذلك يا كلير؟ أظن أننا جميعاً لدينا مشكلاتنا.» وبدا شيء من الخبث في كلامه وهو يتابع قائلاً: «بالمناسبة، أتعلمين يا غريس انني، وزوجة كولين...»

هتفت كلير: «ريف...»

كان صوتها حاداً ثاقباً، ولكن ريف نظر إليها ببراءة وهو يتابع قائلاً: «يجمعنا الاهتمام بالإنزلاق على الثلج؟» واتجه بغريس إلى الباب وهو يقول: «سأراك في ما بعد، يا كلير. أرجو ألاّ تعلمي، في ما بعد أنك إنما كنت تضيعين وقتك.»

www.liilas.com

حدقت كلير به وهي تسأله: «أضيّع وقتي؟»

قال يذكرها: «أعني في تنظيم معرض الخريف. إذ ربما تشفى زوجة صاحب الأعمال الخيرية، ومن ثم لا يعود هناك حاجة إلى مساهمتك هذه في العمل.»

كانت تمتدّ خلف حدائق القصر المسوّرة، فدادين من المراعي المعشبة متموّجة نحو الجبال البعيدة. وذات يوم كانت أراضي إنفركالدي، تمتدّ على مدى النظر، ولكن هذه الأيام، قضت عليها الضرائب وموت الرجال. ومع هذا، فما زال ريف يشعر بالسرور وكانت أسعد أوقاته هي التي يمضيها بين أملاكه. ولم يكن ليهتم في أن هذه الأيام كانت الوديان مسارح لصيد الغزلان. وكان هنالك السلمون في الأنهر والطرائد في الغابات. والحيوانات البرية موجودة بكثرة وافرة من كل حجم ونوع.

وكان حين خروجه، قد أحضر معه كلبين أخذا الآن يتسابقان أمامهما. وكان الهواء قارصاً، والجوّ مشبعاً برائحة الدخان المنبعث من محرقة النفايات عند كوخ حارس الصيد.

ووضع ريف يديه في جيبيه، ومضى ينظم أفكاره. إنه لم يعرف لماذا شعر بضرورة إلقائه بتلك الكلمات لكلير أثناء خروجه. فهو لم يكن يجهل أن أخاه وزوجته يتوقعان أن يخلفه جيم. وسيكون ذلك عاجلاً أو آجلاً ما دام هو مستمر في عدم اهتمامه بإدارة الأملاك، ولكن الطريقة التي قالت بها ذلك قد أثارته. مهاجمتها الحقود له حين تحدى ادعاءاتها الفارغة. كانت متعصبة متعالية كلياً. لقد أراد أن يحرجها ويرى ما ستكون عليه ردة فعلها.

الحقيقة أن انتقادات كلير لإيزوبيل وكوري هي التي مست منه وتراً حساساً. إن بإمكانه أن يتقبل الانتقاد لعيوبه هو، فقد اعتاد على ذلك، وعلى لومه لأجلها. ولكن أن تتحدث عن إيزوبيل بمثل ذلك الاستخفاف، هو الذي أشعل النار في دمه.

كانت الأرض تحت أقدامهما موحلة. وعندما أخذا يسيران بين أشجار السنديان التي تحف بالبحيرة، غاصت أقدامهما في مزيج من أوراق الأشجار والأوحال. وكانت الرياح قد تركت الأشجار شبه عارية. وابتدأت غريس في الشكوى من أن حذاءها لا يمنع المياه من التسرب إلى قدميها.

قالت له: «ألا يمكننا أن نأخذ السيارة ونذهب إلى ستراتمور لتناول الطعام؟ إن الأرض موحلة هنا وأنا أشعر بالبرد.» وكان واضحاً أن هذا كان هدفها منذ البداية.

ردّ عليها بجفاء: «لا أظن الكلبين ستعجبهما الرحلة بالسيارة.» وعندما رمقته غريس بنظرة بانت فيها المهانة، أخذ يفكر في أن هذه الأمسية لم تكن فعلاً مناسبة لإنشاء الصداقات وللتأثير على الآخرين. فإن كلير من غير المحتمل أن تنسى ما قاله لها. وغريس ربما ستشكوه إلى أمه.

ورحّب بنباح الكلبين ليحوله عن أفكاره. ولما رأى ما يدلّ على أنهما وجدا شيئاً بين آجام القصب التي تحفّ بالبحيرة، نفى من ذهنه ما كان قرره من استرضاء غريس، ليسرع الخطى. ولما اقترب رأى شيئاً أشبه بجثة حيوان مشتبكة بالضفة. وتكهن بأن ذلك لا بد أن يكون حيواناً غريقاً أو كلب بحر. وصفر للكلبين فهو لم يكن يريدهما أن يسحبا إليه جثة متعفنة لكي ينالا رضاءه، ولكنهما تجاهلا

www.liilas.com

استدعاءه لهما. عند ذلك طلب من غريس البقاء حيث هي، ثم أسرع يخوض في الأوحال داخل الأجمة.

وما أن اقترب من المكان حيث كان الكلبان ينبحان ويتواثبان حول صيدهما، رغم شدّه للجامهما في يده، تمتم يشتم الحيوانين الغبيين وقد فرغ صبره، ذلك أنهما كانا قد غاصا في المياه، بجانب الأوحال التي كانت الآن تغطيهما تماماً.

ثم، إذا بالمخلوق يتحرك، وللحظة ظن ريف أنه ربما خداع النظر في ذلك الضوء الباهت. فقد كانت العتمة قد ابتدأت تنتشر. ولكنه ما لبث أن سمع أنيناً خافتاً، ليدرك وقد تملكه الذعر، أنه أمام إنسان.

ولم يعد يهتم الآن بتعريض ستره الشاموا للأوحال وهو يندفع إلى الأمام غير عابىء بالقصب الذي كان يعترض طريقه. كانت كل خطوة وهو يغوص في المياه تحمل خطر الانزلاق والسقوط في البحيرة، بينما كان هو يفكر في من تراه يكون ذلك الذي فقد توازنه ليقع في المياه.

كان الجسد متكوماً حول نفسه، وكان على ريف أن يتقدم خطوة في المياه العميقة لكي يستطيع مدّ يد العون. وكان خوفه أن يكون الغريق نصف واعٍ، وكان الخطر ماثلاً أمام عينيه وهو ينحني ليرفع الجسد من خلال الأجمة الملتفة.

لقد كانت كوري.

وما أن حملها حتى أدرك مقدار خفة وزنها، وسقط رأسها على ذراعه. كان وجهها الشاحب المغطى بالأوحال واضحاً، حتى في تلك العتمة الخفيفة. وتحوّلت عيناها الزائغتان نحوه، ثم قالت بصوت واهن: «ريف؟» وفكر هو متهكماً، في سهولة لفظها لإسمه بعكس أمها.

وأجابها عابساً: «كوري.» وأمر الكلبين بالابتعاد وهو يقف يثبت من إمساكها. وكان جسدها مبللاً تماماً، وشعر بالبلل يتسرب إلى سترته. ما الذي كانت تفعله؟ ألم يكن من المفروض أن تكون في مدرسة أو على الأقل في طريقها إلى البيت في هذا الوقت من النهار؟

قالت وهي ترتجف: «أشعر بالبرد.» وانتبه هو إلى جسدها البارد. لقد كانت في خطر الإصابة بالتهاب رئوي أو أيّ شيء آخر... وخرج من الماء شاعراً بالعجز تجاه ذلك.

سألته غريس: «من هذه، وما الذي يحدث؟» ولكن جلّ اهتمامها كان منصباً على أن أمسيتها هذه قد أفسدها الكلبان، وهذه المخلوقة التي لم تجد سوى أن تسقط في البحيرة.

قال ريف: «إنها كوري، كوري جاكوبسن. إنها مبللة حتى العظم.» ووقف لحظة يحاول أن يفكر، وهو يقول: «ما الذي عليّ أن أفعله؟»

قالت غريس باشمئزاز: «ضعها على الأرض قبل أن تتلف معطفك الثمين. من هي كوري جاكوبسن هذه، يا ريف؟ وما علاقتها بك؟»

ونظر هو إلى وجهها الممتعض ببرود ثم سألها: «ما الذي تريدينني أن أفعل؟ أن أتركها هنا لتموت من التهاب رئوي أو غيره؟ ماذا؟ إنها طفلة يا غريس. إنها باردة وخائفة وبعيدة عن بيتها.»

قالت بازدراء: «إنها ليست مشكلتي، كما أنها ليست مشكلتك. من هي؟ أهي أحد أبناء الفلاحين؟ وأين أبواها؟ ألا يهتمان بمكانها أو بما يمكن أن يحدث لها؟»

www.liilas.com

قال عابساً: «لا أظن أحداً يعلم.» وإذ تذكر ما سبق وأخبرته به كلير عصر هذا اليوم، تصوّر موقف إيزوبيل عندما تعلم بما جرى.

وهنا تذكر أن كل لحظة يمضيها في النقاش مع غريس، تزيد حالة كوري تفاقماً، بازدياد البرد في جسمها، وهذا ما جعل قراره هو أن يأخذها إلى القصر. فقد كانت كما سبق وقال، بعيدة عن بيتها. وأخذها إليه يعني أن يقطع بالسيارة مسافة خمسة أميال في الطريق الريفية. هذا إلى أنه قد لا يجد إيزوبيل هناك. فإذا كان الباب موصداً، يكون على كوري أن تمضي قرابة ربع ساعة أخرى في حالتها هذه وثيابها المبللة. أما الآن، فمن الضروري تغيير ثيابها ووضعها في حوض حمام ساخن، ولم يكن الوقت يسمح بالشك في حكمة هذا الحلّ.

ودون أن ينطق بكلمة أخرى، توجه ناحية القصر، بينما غريس والكلبان في أثره. وكانت المسافة من حيث ابتدأ مسيرتهم، حتى بوابة القصر، تبلغ حوالي الميل. وما أن وصلوا إلى البوابة، حتى كانت ذراعا ريف قد ابتدأتا ترتجفان.

لقد أثار حيرته وزن الفتاة كلما زادت المسافة التي يحملها فيها. وكان تنقلها بين الغيبوبة واليقظة، قد جعل جسمها كالجثة بين ذراعيه. وكان كل ما يرجوه ألاّ تكون هذه هي النتيجة. ذلك أن ليس بإمكان إيزوبيل أن تفقد ابنتها بعد فقدانها لزوجها منذ سنة.

الفصل الثامن

جلست إيزوبيل بجانب ريف في سيارته الرانج روفر وهي تحاول أن تمنع نفسها من الارتجاف، وتمنت ألاّ يرى ركبتيها تصطكان.

وكانت ترتدي معطفها الأبيض حين دخل ريف العيادة، فحسبته أحد الزبائن، ولكنها لما عرفته، انتابها الذهول... فقد كان آخر انسان تتوقع رؤيته هنا.

ظنت أنه جاء لرؤيتها، وانتابها الذعر لهذا، فقد جاهدت طويلاً لكي تتمكن من نفيه من ذهنها وأفكارها. ولكنه ما أن دخل العيادة حتى طارت نفسها شعاعاً.

إنها، حتى ذلك الوقت، لم تكن قد ادركت إلى أي حد كانت تتلهف إلى رؤيته مرة أخرى. ومضت لحظات حاولت فيها أن تتمالك مشاعرها عبثاً.

لقد جاءها بهذه القنبلة.

لقد جرى حادث لكوري. وهو لا يظن أن ضرراً أصابها، وانما هي الصدمة فقط. ولكنه أخذها إلى القصر بعد أن وجدها مبللة تماماً على ضفة البحيرة. وهو يريد من الدكتور وبستر أن يراها، أما الآن، فهو قد جاء لأخذها لترى ابنتها.

وهكذا ذهبت نفس إيزوبيل أشتاتاً. انها لم تصرخ أو تنفجر في فيض من الدموع، ولكن ساقيها تخلخلتا، ولولا مسارعة ريف إليها لانهارت على الأرض مرة واحدة. ولكنه وضعها على أقرب كرسي، ثم استدعى الممرضة لكي تعتني بها.

لقد رفضت ما قدمته إليها الممرضة لانعاشها، عدا كوب من الماء أخذت ترشفه بينما كان ريف يطلع الممرضة على الوضع، بكلمات سريعة. وعندما عاد ينظر إليها، كانت قد وقفت على قدميها وهي تترنح قليلاً.

قالت وهي تخلع معطفها الأبيض: «انني جاهزة.» وتبادل ريف والممرضة نظرة ذات معنى.

وتساءلت إيزوبيل وهي جالسة بجانبه في السيارة تنظر إلى الطريق الريفي المتعرج، عما إذا كانا، في ذلك الحين، يشعران نحوها بالأسى. لقد كان الجميع يعلم الآن أن كوري كانت مشكلة لأمها. وكانت تعرف أن ليس من السهل أن يكون هذا الأمر مقبولاً في إنفركالدي. فالناس هنا لا يحبون الغرباء. وإسميها ولهجتها قد أبعدت الآخرين عنهما.

وكان هذا أحد الأسباب التي كانت تسبب لكوري الصعوبة في الاستقرار في المدرسة في ستراثمور. وكان واضحاً أن ابنتها ستبقى منعزلة كالجرح النازف. ولكن كوري لم تكن من النوع الذي يعزل نفسه عن الآخرين... كما أخبرها بذلك السيد دوغال الناظر منذ يومين.

والآن، جاء هذا الحادث. وارتجفت إيزوبيل مرة أخرى، شاعرة بالبرد بالرغم من أن جهاز التدفئة في السيارة كان مفتوحاً إلى النهاية. ما الذي كانت تفعله كوري؟ لقد كان كل ما تعلمه أنها استقلت حافلة المدرسة ذلك الصباح، كالعادة. ولكن العثور عليها بعد الظهر بهذا الشكل يعني أنها لم تذهب إلى المدرسة؟

سألها ريف: «هل أنت بخير؟»

كان صوته قلقاً خافتاً، ولكن إيزوبيل لم تشأ أن توهم نفسها بأنه كان اكثر من مجرد سؤال سطحي. لا بد أنه في اعماقه، يشعر بالضجر من أسرة جاكوبسن هذه، وسبب لها هذا الظن، التعاسة. إنهما منذ وصولهما إلى هذه البلدة، لم يصدر عنهما سوى الإزعاج.

حتى كلير التي كانت تظنها صديقتها، لم يظهر منها سوى عدم الوفاء. فهي عندما تزور العيادة، وكان هذا نادراً ما يحدث، فمودتها تكون موجهة إلى الممرضة فوللر اكثر منها إليها هي. وقد استمرت تعاملها بنفس التعالي الذي ظهر منها نحوها عند زيارتها لهما ليلة وصولهما. كذلك اتصال ناظر مدرسة كوري بها هاتفياً ليشكو إليها سلوك ابنتها، لم يعزز مكانتها عند الدكتور وبستر هو أيضاً.

ووضعت راحتيها بين ركبتيها، وهي تسأله: «ألم يكن من الأفضل أن تؤخذ كوري إلى بيتها بدلاً من القصر؟» أجاب: «كلا.»

عادت تسأله: «هل لأنها كانت أقرب إلى القصر عندما وجدت؟ كيف تراها ذهبت إلى هناك؟»

وألقى نحوها نظرة سريعة لم تستطع هي معها أن ترى التعبير الذي بدا على ملامحه. ولكنها شعرت بضيقه. أتراه يشك في أنها تظنه ربما كانت له يد في ذلك الحادث؟

قال باختصار: «كانت مبللة الجسم، ومهددة بأن تسقط فريسة التهاب رئوي أو ما أشبه، فلم أهتم بالتفكير في كيفية وصولها إلى هناك.»

ازدردت ريقها وهي تقول: «آه.. هل أنت الذي عثر عليها؟»

www.liilas.com

أجاب ببرود: «نعم، أنا. هل يشكل ذلك أي فارق؟»

قالت: «نوعاً ما، فأنا لم أشكرك.»

قال بخشونة: «انك لست في حالة تسمح لك بشكر أي انسان. لا أريد منك أي شكر يا إيزوبيل. وقد كان من حسن الحظ أن خرجنا للمشي بعد الظهر إلى جانب البحيرة. ولو لم نأخذ الكلبين معنا، ربما ما كنا عثرنا عليها.»

قالت: «ولكن ما الذي كانت تفعله هناك. كان المفروض أن تكون في المدرسة؟»

أجاب: «من يعلم؟ إنها لم تكن في حالة تسمح بإيضاح أي شيء عندما وجدناها. ولكن أحد الحراس قال إنه كان وجد زورقاً صغيراً في أجمة القصب بعد الظهر، وقد شك في وجود أحد لصوص الصيد، ولكنه لم ير أحداً.»

حدقت فيه قائلة: «أتظن أنها ربما كانت في الزورق في البحيرة؟»

أجاب: «هذا ممكن.»

وأخذت تفكر في أنها ما كان لها أن تأتي إلى إنفركالدي، ليس بسبب ما حدث لكوري، ولكن لأنها هي نفسها في خطر، أيضاً.

قال لها بعد لحظة: «اقترح أن تبقى كوري حيث هي هذه الليلة.»

قالت دون أن تفهم: «تبقى حيث هي؟ لماذا؟»

أجاب: «ولما لا؟ عندما تركت المنزل، تركت تعليمات لدى السيدة فيلدنغ، مدبرة منزلي، بأن تدخلها الحمام، ثم تضعها في السرير، ولا أظن أن من الحكمة ازعاجها مرة أخرى. ليس قبل الصباح على الأقل. إن لدينا غرفاً كثيرة.»

وسكت برهة ثم عاد يقول: «ويمكنك ان تبقي معها إذا شئت.»

قالت: «آه، كلا.» وكان ردها على ذلك حاسماً، فرمقها بنظرة استخفاف، ثم قال ببطء: «ان ذلك راجع إليك. ولكن إذا غيرت رأيك فاعطي خبراً لمدبرة المنزل.»

أجابت: «إنني لم أقرر بعد ما إذا كانت كوري ستبقى هنا. إنني شاكرة لهذا العرض، ولكن...»

قاطعها قائلاً بسخرية: «ان لدينا الكثير من الخدم. فهذه ليست مكيدة مني لكي تقعي بين مخالبي. ان أمي موجودة، كما أن عندها ضيفة. كذلك بقية الموظفين الفضوليين.»

قالت: «انني لم أظن قط...»

قاطعها قائلاً: «لم تظني ذلك.»

وعاد يقول ساخراً: «ترين من هذا انك في أمان... لقد... لقد مضت اسابيع منذ أن قمت بأي حادث قتل وسلب آخر مرة.»

تصلب جسدها وقالت بعصبية: «لا تكن احمق.»

قال: «وأنت أيضاً لا تكوني حمقاء. فها أنت ذي تجلسين هنا والرعب يتملكك خوفاً مني.»

قالت بحنق: «هذا غير صحيح.» ولكنه لم يكن يستمع إليها، إذ كان يقول: «ها قد وصلنا.»

ووقفت إيزوبيل تتأمل ذاهلة، رغم ما يعتمر في نفسها من قلق، تتأمل ذلك القصر الشامخ الذي يحف به الجمال، جمال الطبيعة، من كل جانب...

ولكن، كان إلى جانب القصر بناء آخر ملحقاً به وبمائله في القدم كما رأت إيزوبيل. ولكن الاصلاح ناله اكثر من البناء الأول. ويصل بينهما ممر طويل مسقوف.

www.liilas.com

شعرت إيزوبيل بقلبها يعتصر وهي تتذكر ما سبق واخبر جيم كوري عن زوجة ريف. فقد قال لها ان اصلاح القصر قد انجز بأموال تلك الزوجة، وكان عليها أن تتذكر أن هؤلاء الناس لا يتزوجون بسبب الحب وحده، إذ من المؤكد أن ريف،إذا اعتبرنا ردة الفعل التي أحدثها موتها في نفسه، ريف هذا قد أحب زوجته... ولكن الشرف، والثروة يتوارثونها من جيل إلى جيل، كان هو المهم. فالحب يمكن أن يشترى، ولكنه لا يورث. وهو أرخص كثيراً منه في الزواج...

وساعدها على النزول من السيارة خادم عجوز، بينما كان ريف واقفاً ينتظرها باسماً. وما لبث أن قال: «أرأيت؟ إنه كومنز وهو، بالمناسبة، أحد أقدم العاملين عندنا. وكان وصيفاً خاصاً بأبي، منذ سنوات طويلة. والحقيقة أنه اقدم مني أنا هنا.»

«سيدي.»

التفت ريف إلى كومنز الذي قال يسأله: «هل ستحتاج إلى سيارة الرانج روفر مرة أخرى هذا المساء، يا سيدي؟»

التفت ريف إلى إيزوبيل مستفهماً، فقالت بسرعة: «إننا... إنني سأعود في ما بعد إلى بيتي.» ذلك أنه لم يكن هنالك سبيل يجعلها تقبل بالبقاء في القصر. إنها سترى كوري وتطمئن إلى أنها قادرة على العودة إلى البيت، ومن ثم يذهبان معاً.

ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة.

ذلك أن إيزوبيل ما أن وقع نظرها على ابنتها، حتى أدركت أنها لم تحسن تقدير الموقف. لقد كان الحق مع

ريف. ذلك ان كوري لم يكن بإمكانها أن تتحرك. وكانت حرارتها عالية بحيث عجبت إيزوبيل إذ لم يصحبها فقدان كامل للوعي. وكان العرق ينضح من جلدها. وكان وعيها إلى المكان الذي كانت موجودة فيه، هو وحده الذي طمأن إيزوبيل. حتى ريف نفسه بدا عليه القلق من ارتفاع درجة حرارتها، ثم أخذ يتحدث إلى المرأة التي كانت معها، بينما اتجهت إيزوبيل نحو السرير.

قالت كوري: «أليس هذا مكان غير عادي؟» وغمر الارتياح نفس إيزوبيل لسماع صوت ابنتها، ونسيت كل كلمات اللوم التي كانت تستظهرها وهي في طريقها إلى هنا، لتأخذ يد ابنتها بين يديها الباردتين.

ردت عليها الأم وهي تنظر حولها في أنحاء الغرفة التي كان ينيرها مصباح أثري: «انه كذلك، حقاً.» لقد استطاعت أن ترى السبب في تأثر كوري هذا. فقد كان اتساع الغرفة مذهلاً بالنسبة لشخص قد تعود على غرف المنازل العادية. كما كان السرير بالغ الاتساع، ذا أربعة أعمدة منحوتة تحمل مظلة السرير.

أضافت كوري تقول بينما كانت أمها ترد الشعر المبلل بالعرق عن جبين ابنتها بيد مرتجفة: «إنني بخير. إنني فقط أشعر بالسخونة، وهذا كل شيء. ثم من هي تلك العجوز؟ اتعلمين؟ لقد حاولت أن تغسل جسدي. فأخبرتها... انني لست طفلة. وإنني كبيرة استطيع الاستحمام بنفسي.»

ونظرت إيزوبيل إلى المرأة التي كان ريف يتحدث إليها، راجية ألاّ تكون سمعت وصف كوري لها. فقد كانت السيدة فليدنغ، كما سبق وذكر اسمها ريف، باستثناء كومنز.

www.liilas.com

سألتها كوري فجأة: «اين هو جيم؟»

فقطبت الأم حاجبيها قائلة: «جيم؟»

قالت كوري: «نعم. إنني أريد أن أخبره أن بإمكاني التجذيف في الزورق كما يفعل هو. فقد قال لي ان ليس باستطاعتي ذلك. قال ان الفتيات لسن بقوة الصبيان. ولكنه مخطىء. أليس كذلك يا أمي؟ فأنا بمثل قوته. أو أنني كنت، إلى أن...»

وسكتت فجأة، وتهالكت إيزوبيل إلى جانب الفراش، ثم سألتها: «هل رأيت جيم؟»

أجابت كوري: «نعم. ولكن ليس هذا النهار. ألا تسمعين ما أقول؟ لقد أخرجت الزورق إلى الماء وحدي وأخذت أجذف مثله تماماً. فقد لم يثبت المجذاف في مكانه. ثم حسناً... أظنك تعلمين ما حدث بعد ذلك.»

أجابت الأم بصوت متوتر: «كلا.» لقد آلمها مجرد التفكير في أن ابنتها كانت في البحيرة... ابنتها التي لم تكن تحسن السباحة، وفي تلك المياه العميقة...

وارتجفت بينما كانت ابنتها تتابع: «لقد كان عليّ أن أسبح. لقد سبحت حقاً. انك لم تكوني تعلمين أن بإمكاني هذا. هل كنت تعلمين؟ حسناً، ان بإمكاني ذلك. اسألي ريف وسيخبرك بالحقيقة.»

وهزت إيزوبيل رأسها وقد تملكها الرعب. ان بقاء كوري على قيد الحياة لهو أمر غريب حقاً. كيف تستطيع ان تعنفها لتهورها هذا عندما يكون الأمر مسألة حياة أو موت؟

«إيزوبيل...»

وحولت إليه عينين مغرورقتين بالدموع.

قال برقة: «ان الطبيب في طريقه إلى هنا.»

وحدقت في عينيه اللتين لم ترهما بمثل هذه الرقة من قبل.

قالت: «وهل استطعت... استطعت الاتصال به؟»

أجاب: «كانت السيدة فيلدنغ تخبرني انهم تتبعوا الاتصال به إلى دالبيغ وسيكون هنا بعد فترة قصيرة.»

قالت: «شكراً لك.»

لقد أرادت أن تكرر شكرها، ولكنها كانت قلقة متعبة. وعندما ابتدأت كوري تتكلم مرة أخرى، استدارت إليها على الفور، لقد كانت ابنتها تغمغم الآن بكلمات غير مفهومة، وبينما كانت تدفع عنها الأغطية، كانت تتراوح بين الصحو والاغماء. كان من الجلي انها مرهقة. وتملك إيزوبيل الأمل في أن يكون هذا كل ما في الأمر.

ورفعت عينيها إلى ريف. ونظرت إليه نظرة يحدوها الرجاء، فقال: «ستكون على ما يرام.» وتابع بحنان بالغ: «لن أدع شيئاً يحدث لها.» وبان العنف في عينيه وهو يتابع قائلاً: «ولا لأيّ منكما.»

ففتحت فمها وهي تقول بذهول: «ريف...»

«ما الذي يحدث هنا، يا ريف؟»

جاء هذا السؤال الحاد من ناحية الباب، فاستدارت إيزوبيل بسرعة شاعرة بالذنب، وقد أدركت من لهجة المرأة ومظهرها أنها ليست خادمة أخرى. فقد كانت ترفل في ثوب اسود للمساء وتحيط عنقها باللآلىء. كانت المرأة تنضح عنفاً وكبرياء. ولم تجد إيزوبيل صعوبة في ان تدرك أنها والدة ريف.

ادارت ظهرها إلى السرير بشكل وقائي تقريباً، وكأنها

www.liilas.com

تحاول أن تستر بجسمها، وجود ابنتها عن الأنظار. فقد كان التعبير الذي بدا على وجه الكونتيسة، كان وحده كافياً لتجميد الدم في عروقها. وتساءلت عما عسى أن يكون ريف قد أخبر أمه عندما أحضر كوري عند عودته من النزهة.

قال: «أمي.» وعندما أخذ يحييها، لم تشعر إيزوبيل بأي اهتمام في لهجته، إنما بالعكس، فقد كان ينظر إلى أمه بشيء يشبه التحدي في عينيه. وتشاغلت الكونتيسة بشالها لحظة، ثم عادت تسأله بلهجة متوترة: «كم سيأخذ هذا من الوقت؟»

هزّ كتفيه وهو يقول: «سنعلم ذلك عندما يأتي الدكتور وبستر.» وأحدث الجو الاستقلالي الذي يحيط به، تأثيراً قوياً على إيزوبيل.

كانت ما تزال ترتجف من الشعور بحنانه الذي شعرت به منذ لحظات، وقد تملكها الذعر من التفكير في أنها تتجاوب بأحاسيسها معه في وقت كهذا عليها فيه أن تحصر اهتمامها بابنتها. كانت تقف ويداها خلف ظهرها احتراماً، وكان الشعور بالذنب الذي تحسه لم يكن فقط لأن الكونتيسة قد فاجأتهما، وانما لقلة حظها من الثقة بالنفس.

ولكن ريف كان يتصرف وكأن شيئاً لم يحدث. وكأن مفاجأة أمه له وهو يتكلم برقة وحنان، هو شيء يحدث كل يوم في هذا المنزل. حتى انه لم يبد عليه الاهتمام في ما قد يكون رأي أمه بهذا.

وقال وهو يستدير نحو إيزوبيل: «بالمناسبة، اقدم إليك السيدة جاكوبسن. وأنا متأكد من سابق معرفتك بوجودها.»

«السيدة جاكوبسن.»

كان لفظ الكونتيسة لاسمها بشكل خال من التهذيب. ولم تكن إيزوبيل لتلومها، ذلك أنها هي نفسها خاطبتها بكلمة يا سيدتي بلفظ سطحي خال من الاحترام. ولكنها لم تكن تهتم لشيء مثل هذا في الوقت الحاضر.

كان ريف يراقب هذا التعارف الشاذ، ما جعل إيزوبيل تخشى من ان يدلي بأي تعليق عنيف. وتقديمه لها بهذه الطريقة المرتجلة ما كانت لتكسبها موافقة الكونتيسة. وتمنت لو بإمكانها أن تحمل ابنتها وتخرج من هذا المكان على الفور.

وعادت الكونتيسة تسأل: «وماذا سيحدث بعد أن يدلي الدكتور وبستر برأيه؟»

أجاب: «ان علمي بهذا و علمك سواء. إنني لست طبيباً يا أمي، فأنا انما اتصرف على الفطرة.»

قالت: «أليست هذه هي عادتك على الدوام؟»

كان في لهجة والدته أثر من معنى آخر. وما لبثت ان تقدمت من السرير حيث وقفت عنده عدة لحظات تحدق في الفتاة التي كانت ملقاة دون حراك وقد توهج وجهها، ثم توجهت نحو إيزوبيل بعينين كعيني الصقر وهي تقول ببرودة: «هل تدركين يا سيدة جاكوبسن ان هذه الحادثة خطيرة جداً؟» وتنقلت نظراتها بين تنورة إيزوبيل البسيطة وسترتها الزرقاء بشيء من الإزدراء ثم تابعت تقول: «ولو لم يعثر إبني على ابنتك، لكانت ماتت.»

أجابت: «أعلم ذلك. وأنا آسفة.» وكانت تعلم أيضاً أن عليها أن تضيف إلى جوابها لقب المرأة أيضاً، ولكنها لم تفعل. فهي لم تكن لتحسن التصرف بهذا الشكل، وكان العداء

www.liilas.com

الذي ظهر نحوها من هذه المرأة هو اكثر مما يمكن أن تحتمل.

أجابت الكونتيسة: «انك آسفة! فهل ينفع الأسف يا سيدة جاكوبسن؟ أظن عليك أن تسألي نفسك عما كانت ابنتك تفعله هناك. أما كان عليها أن تكون في المدرسة؟ أظنها تذهب إلى المدرسة، أليس كذلك؟ ألا تتأكدين من أنها تستقل حافلة المدرسة كل صباح؟»

وتدخل ريف قائلاً برقة: «هذا يكفي يا أمي.» ولكن التعبير الذي بدا على ملامحه، أسكت أمه ويبدو أنها استجابت له. وبعد أن ألقت نظرة أخرى على الفتاة في السرير، اتجهت عائدة إلى الباب. ولكنها عندما مرت بإبنها، قالت تخاطبه: «أظن أنه كان على كلير أن تخبر السيدة جاكوبسن عديمة الخبرة، عن المخاطر التي تنتج عن العيش في مجتمع محدود. إذ ليس بإمكاننا أن نتحمل مسؤولية كل حادثة تحدث في قريتنا.»

وحبست إيزوبيل أنفاسها وهي ترى نفسها متهمة، دون حق، بشيء لم يسبق لها التفكير به. ولكن قبل أن تقول شيئاً تدافع به عن نفسها، أمسك ريف بذراع أمه واتجه بها خارجاً من الباب وهو يقول بصوت خشن وقد بان في عينيه التهديد فيما لو قالت شيئاً آخر: «ان هذا ليس من شأنك، يا أمي. لماذا لا تتناولين العشاء أنت وغريس؟ أما أنا فسأتناول شيئاً في ما بعد، بعد أن اتحدث إلى الدكتور وبستر.»

وتساءلت إيزوبيل، غريس؟ ومن تكون غريس هذه؟ وما لبثت ان احتقرت نفسها للاهتمام بهذه الأشياء في هذه

اللحظة. واستدارت بسرعة لترى عيني السيدة فيلدنغ تنصبان عليها. وكانت لم تكد تلحظ وجودها من قبل. لماذا كانت هذه المرأة تنظر إليها بهذا الشكل؟ هل ذلك لأنها كانت تشعر بالأسى لأجلها لما حدث لابنتها؟ أم ربما هو الفضول؟ أم الشفقة؟ أم لعلها تشعر بالتأثر لمحاولتها اخفاء ما تشعر به نحو ريف؟

قال ريف بعد أن عاد إلى الغرفة مخاطباً السيدة فيلدنغ: «يمكنك الذهاب الآن، يا سيدة فيلدنغ. ولكن حال وصول الدكتور وبستر، احضريه إلى هنا.»

قالت: «نعم، يا سيدي.»

تركت مدبرة المنزل الغرفة بعد أن حنت رأسها بأدب لإيزوبيل. ولم تغلق الباب تماماً. وانتبهت إيزوبيل إلى أنها اصبحت منفردة مع ريف. وشعرت بالكآبة. فقد كانت تعلم أن أمه لا توافق على مثل هذا الوضع.

اقترب ريف منها، دون اهتمام بما قد تظنه اسرته بتصرفاته هذه، وهو يسألها: «كيف حالها؟»

فألقت عليه نظرة حذرة، ثم قالت بعد لحظة: «لا... أدري. مازالت الحرارة مرتفعة، وأظنها مشوشة الذهن.» وحاولت تركيز افكارها على ابنتها، محاولة أن تتذكر أن من الطبيعي له أن يهتم بها هو أيضاً. فهو الذي عثر عليها على كل حال. وتابعت تقول: «انها لم تفهم أن مدبرة المنزل كانت مكلفة بأن تساعدها على الاغتسال.»

مدّ يده إلى جبين كوري، ثم قال: «ان حرارتها مرتفعة تماماً. ولكنني أظن أننا عثرنا عليها في الوقت المناسب، فلا تقلقي. وكما سبق وقلت لك، لن ادع شيئاً يحدث لها.»

www.liilas.com

فسألته قائلة: «وما الذي يجعلك متأكداً من ذلك؟»

لقد انطلقت من فمها هذه الكلمات، ولكنها إذا كانت تظن أنها ستبدد ذلك التقارب الغريب الذي كان ينمو بينهما، فهي إذن، مخطئة. إذ بدلاً من ان يستاء منها، فقد حول أنظاره من ابنتها إليها، وقال لها بخشونة: «لأنني أنا أقول ذلك.» كانت تعرف أنه يحاول تطمينها، ومن الجنون أن تفسر ذلك بأي معنى آخر.

وتمتمت تقول: «ولكنك... لا تعلم.»

فرد عليها بلطف: «بل اعلم. ثقي بي. كما ان الطبيب سيكون هنا قريباً، وأي شيء تتطلبه حالتها، ساقوم أنا به.»

أجابت: «ولماذا تقوم أنت بهذا؟»

قال لها هامساً: «ولماذا لا أقوم به؟» وشعرت بأن هذا ليس جواباً لسؤالها، وإنما لشيء في نفسه.

عند ذلك، صدر عن كوري صوت، لتعود هي إلى عالم الواقع. وقال ريف: «في ما بعد.» وقبل ان تفكر في ما يعنيه بقوله هذا، تركها وهو يقول: «أما الآن، فأرجو المعذرة. أظن الدكتور وبستر قد وصل.»

الفصل التاسع

عندما فتحت إيزوبيل عينيها، كان ضوء النهار يملأ المكان. وكانت أشعة الشمس تتسلل من بين الستائر، وللحظات أخذت تتساءل لماذا لم تكن تسمع هديل الحمائم هذا الصباح كالعادة.

ثم بدأت أحداث اليوم السابق تتجلى في ذهنها. لقد عثروا على كوري نصف غريقة في البحيرة ولو لم يعثر عليها ريف...

وجلست تنظر إلى ساعتها في معصمها، واستغربت أن تجد أن عليها أن ترفع كم سترتها. لقد كانت تنام بكامل ثيابها.

وكان واقع أن الوقت كان الثامنة صباحاً، كان كافياً لأن يجعلها تقفز من السرير متعثرة. ولكن ما أن ألقت نظرة على مظهرها في المرآة، حتى وقفت فجأة. لقد شوّه النوم بكامل ثيابها مظهرها كلياً، وهي لا تستطيع أن تبدو في القصر كما تبدو في بيتها. ومهما كان مقدار قلقها على ابنتها، فلا بد لها من أن تحاول تحسين مظهرها قبل ذلك.

لقد صعدت من غرفة ابنتها الساعة الرابعة صباحاً، ولم تكن تنوي الرقاد حين ألقت بنفسها على السرير لترتاح قليلاً. وكانت قد أمضت الوقت جالسة قرب سرير كوري مع زميلتها في العيادة الممرضة ستيلا فوللر التي كان قد استقدمها ريف للسهر على كوري حتى دون رغبة الدكتور وبستر نفسه.

أما تشخيص الدكتور لحالة كوري فهو أن تنقل إلى مستشفى ستراثمور وقد ابتدأت التدابير فعلاً لنقلها واستدعاء سيارة الاسعاف لذلك، لكي يخلي الطبيب نفسه من كل مسؤولية، أولاً، وثانياً لكي ينقلها من القصر.

ولم تعارض إيزوبيل وهي التي لو كان الأمر بيدها لانتقلت بابنتها من القصر منذ البداية. إذ بعد ما حدث في الليلة الفائتة، كانت مستميتة للانتقال، كما كان الآخرون تماماً. إنها لم تعرف ما نوع اللعبة التي يقوم بها ريف، ولكنها تعرف أن الضرر سيصيبها من جرّاء ذلك.

أما ريف، فبعد أن استمع إلى ما قاله الطبيب، أعلن قائلاً ان الممرضة يجب أن تبقى حيث هي، ومع العلاج المناسب سيحدث الشفاء حتماً، فلا ضرورة إذن لنقلها، وإنه متأكد من أن إيزوبيل تفضل أن تبقى رؤيتها لابنتها يسيرة المنال.

وكان هذا صحيحاً بالنسبة لإيزوبيل، وإن كانت تفضل أن يكون ذلك في مكان غير القصر، في بيتها مثلاً. إنها ستأخذ كوري إلى البيت حالما تساعدها صحتها على ذلك.

وهكذا كان. وعندما اعترض الطبيب على إحضار ممرضة العيادة للسهر على كوري، بحجة أنها قد لا تقبل بذلك، عرض أن يحضر ممرضة خاصة، بل وذهب ريف إلى أبعد من هذا إذ قال إنه على استعداد لإحضار طبيب آخر إذا كان الدكتور وبستر يرى في نفسه عدم القدرة على تولي علاج كوري بنفسه. ولكن هذا الرأي قد شكل إهانة للطبيب، الأمر الذي حمل ريف على أن لا يثيره مرة أخرى.

هذا إلى أن الدكتور يملك الخبرة الكاملة، ذلك أنه أثناء عمله في مستشفيات انكلترا واسكتلندا قد واجه كل أنواع

الأمراض والحوادث. ولم تكن إيزوبيل تشك في أن ابنتها بين يدي طبيب حاذق. خاصة وأن الممرضة ستيلا فوللر لم تعترض على المجيء.

وهكذا استمرت إيزوبيل جالسة بجانب ابنتها مع الممرضة، حتى الساعة الرابعة صباحاً. وقد كان نوم كوري جيداً رغم أن الحرارة بقيت مرتفعة. ولكن الممرضة التي كانت في غاية اللطف طمأنتها بأن العلاج الذي أوصى لها به الطبيب كفيل بإنزال الحرارة، وأن لا ضرورة لقلقها هذا الذي لن يجدي شيئاً.

ومع أنها كانت تعلم أن هذا صحيح، فإن قلقها لم يتغيّر. فهي ما زالت لم تعرف ما الذي جعل كوري تأتي إلى البحيرة. كما أنها كانت تعلم أن عليها أن تتصل هاتفياً بالسيدة جاكوبسن جدة كوري لكي تخبرها بأن كوري تعرضت لحادث لكنها ترددت في أن تخبرها لجهلها بكيفية وقوع ذلك، لأن هذا سيجعل الجدة تستقل أول قطار إلى اسكتلندا، ومن ثم كل الاتهامات المتبادلة ستعود من جديد.

وفكرت في ريف. إنها لم تره منذ حضور الممرضة، وظنت أنه أوى إلى فراشه. ولكنها سرعان ما أدركت خطأها عندما رأته مرة أخرى، في ساعات الصباح الأولى، وكان ما يزال مرتدياً ملابسه، وقد طالت لحيته.

وتذكرت غضبه لرؤيتها تجلس الليل بطوله إلى جانب سرير ابنتها على كرسي قائم الظهر غير مريح على الإطلاق. وغضبه لأن أحداً لم يقدّم إليها شيئاً تأكله، لأنها كانت جاءت مباشرة من العيادة، بعكس الممرضة التي كانت حضرت من بيتها بعد تناولها طعام العشاء.

www.liilas.com

وتساءلت عما عسى أن تكون الممرضة فكرت بالنسبة إلى علاقتها بريف. وسرّت حين أمر أحد الخدم بأن يأخذها إلى إحدى غرف الضيوف، بدلاً من أن يأخذها بنفسه أمام نظرات الممرضة الفضولية.

ولكنها لم تكن تريد أن تترك ابنتها، وهذا جعلها ترفض أن تتناول الشاي والساندويتشات التي أحضرت إليها في غرفة الضيوف.

ودخلت الحمام حيث ارتاحت لوجود مشط وفرشاة، وهكذا غسلت وجهها وسوّت من شعرها وثيابها قدر استطاعتها، ما جعلها تبدو بمظهر أفضل، ثم خرجت من غرفتها وهي تتمنى ألاّ تصادف الكونتيسة في طريقها. فقد كان يتملكها إحساس خفي بأن مثل هذه المصادفة لن تنتهي على خير.

«القهوة يا سيدي..»

وفتح ريف عيناً واحدة، وهو يشعر بصداع، ويتساءل عما جعل كومنز يحوم حوله كالغراب. وعندما تحرك شعر بألم في فقرات ظهره السفلى، كما كان ظهره متصلباً ومزاجه سيئاً.

وعاد كومنز يقول: «لقد سألتك عما إذا كنت تريد شيئاً من القهوة، يا سيدي. فالوقت الثامنة والربع فقط، ولكنني متأكد من أنه سيسرّك أن تعلم أن الآنسة جاكوبسن قد تحسنت قليلاً كما يبدو.»

«الآنسة جاكوبسن، إيزوبيل! كلا بل كوري.»

وحاول أن يقوّم ظهره، ولكنه اكتشف أنه كان نائماً على المقعد الجلدي خلف مكتبه، والذي كان سبباً لما يشعر به من صداع وتصلّب في جسده.

قال للخادم: «شكراً.» وكان يتساءل عما جعل كومنز يبقى واقفاً دون أن يضع الصينية على المكتب ويخرج.

قال كومنز: «نعم يا سيدي.» ثم وضع الصينية أمامه، ولكنه تلكأ في الخروج وهو يقول: «شكراً يا سيدي.»

مدّ ريف يده يلامس لحيته النابتة براحته، ثم لوى شفتيه بسخرية وهو ينظر إلى كومنز مستفسراً عن سبب بقائه بقوله: «حسناً؟»

أجاب الخادم: «هل أنت بخير يا سيدي؟»

أجاب ريف بنظرة لا مبالية: «لا تقلق يا كومنز، فأنا بأتم خير وفي كامل الاتزان. ويمكنك أن تخبر سيادتها بأنني سأتناول معها الإفطار.»

قال الخادم: «إنني لست قلقاً يا سيدي. ويسرّني أن أعلم أنك بأتم خير. ولكن ربما يسرّك أن تعلم أن سيادة الكونتيسة الآن في غرفة المريضة تزورها. وأظنها مسرورة بتقدم صحتها هي أيضاً، وهي الآن تتحدث مع الممرضة فوللر عن إمكانية متابعة علاج المريضة في منزلها و...»

قاطعه ريف: «ماذا؟»

تراجع كومنز خطوة إلى الوراء وهو يقول بعصبية: «إنني قلت...»

صاح به ريف وهو يقف على قدميه: «كفى! فقد سمعت ما قلته. لماذا لم تخبرني بذلك منذ البداية؟» وأخذ يشتم.

قال كومنز: «إن هذا هو سبب حضوري إليك يا سيدي، لقد جئت لأخبرك.»

نظر إليه بابتسامة أسف: «إنك على حق يا كومنز. والآن

www.liilas.com

سأترك القهوة هذه الآن إلى ما بعد. لا يمكننا أن ندع أمي تعطي الضيوف انطباعاً خاطئاً عنا، أليس كذلك؟»

وسرعان ما كان ريف يخرج من مكتبه، مجتازاً الممرّ ليصعد إلى الطابق الأعلى. كان يريد أن يعلم بالضبط ما الذي تريده أمه باتفاقها ذاك مع الممرضة من وراء ظهره. هل ظنت حقاً أن بإمكانها طرد إيزوبيل وابنتها من القصر دون علمه؟ هل اعتقدت أن بإمكانها القيام بذلك وهي مطمئنة لعلمها أن لا أحد يجرؤ على إيقاظه في الصباح؟

وقبل أن يصل إلى غرفة المريضة، تناهى إلى مسامعه، من الباب المفتوح، أصوات مختلطة لأمه والممرضة وكذلك صوت إيزوبيل.

ووصل إلى الغرفة، حيث وقف عند العتبة يشمل المنظر الذي أمامه وقد ظهرت المرارة في نظراته، كانوا هناك جميعاً، أمه والممرضة فوللر، وإيزوبيل. وكانت اثنتان منهما منخرطتين في نقاش حاد لا بد أنه كان يزعج المريضة.

ورأى وجه إيزوبيل متوهجاً، وعينيها تلمعان ربما بالدموع وقد عضت على شفتها السفلى. كما بدا شعرها وكأنه ضفر بيد غير ثابتة... وبدت له فاتنة رغم تقاطيع وجهها العادية. الشعر الذهبي الداكن، العينان العسليتان المائل لونهما إلى الاخضرار. أما ما الذي فتنه فيها فهذا ما لم يعرفه، حتى انه لا يريد التفكير فيه. ولكنها مهما كانت فهو لا يستطيع أن يقاوم تأثيرها عليه. إنه لم ير امرأة من قبل تملك هذا المقدار من الأنوثة والدفء، حتى ولا سارة.

ولكنه لم يستطع أن يستوعب هذه المشاعر أو يتقبلها.

فهو يحاول أن يقنع نفسه بأن ما يشعر به نحوها لا يعدو الأسف لحالها، وهذا كل شيء.

لم تكن الكلمات التي كانت أمه تنطق بها، تعني له شيئاً في هذه اللحظة، فهذه الجمل التي هي مثل (تستغلين الوضع)، و(افتراض لا مبرر له) كانت تتردد في مسامعه دون أن يفهمها. فقد وقف لحظات يفكر بامتعاض بالأحاسيس التي بعثتها إيزوبيل في نفسه، ليخترق جمجمته بعد ذلك، قولها بحرارة: «هذا ليس عدلاً.»

ولكن قبل أن يتمكن من التدخل، نابت عنه كوري في ذلك، وكان جلياً أن حالتها هذا الصباح، كانت تميل إلى التحسن، ومع أنها كانت ما تزال شاحبة الوجه، فإن عينيها كانتا يقظتين. وكانت مستلقية على الوسائد تستمع إلى ما كانت أمها تدافع به عن نفسها أمام الكونتيسة، وذلك باستمتاع ظاهر.

ولكنه لم يعجبه هذا منها، رغم سروره بعدم سقوطها فريسة مرض يهدّد حياتها، وذلك لأجل إيزوبيل في المكان الأول. ولكن شعوره بأن أمه ربما كان عندها شيء من الحق في استيائها هذا، شعوره هذا قد أصابه بشيء من الخيبة.

وعلا صوت كوري، رغم ضعفه، مرحباً بريف: «مرحباً.» فتحولت نظرات الأخريات إليه. ومع أن الممرضة لم تكن مشتركة في هذه المشادة، إلا أنها نظرت إلى ريف مذعورة، وهي تراه يقف بالباب متجهم الوجه، حتى أمه بدا عليها الذعر لظهوره المفاجيء، أما إيزوبيل فقد عقدت ذراعيها فوق صدرها بشكل دفاعي.

قال: «ما الذي يجري هنا؟» وكان يدرك أن سؤاله هذا

www.liilas.com

كان يظهر تحدياً لا مبرّر له. ولكن الاضطراب البادي على وجه إيزوبيل، بعث القسوة في أعماقه. ولم يكن ريف قد اعتبر نفسه قط، بطلاً من قبل، ولكنه في هذه اللحظة، كان على استعداد لأن يحارب في سبيل أن تستعيد إيزوبيل كرامتها الممزقة.

ولكنه اعترف لنفسه بالرغم عنه، أن هذا لا يعني أن أيّ شخص باستطاعته أن يصف أمه، وهي تشدّ من قامتها، لتواجهه وقد بان في ملامحها التحدي والتعنيف. حتى في هذا الوقت من الصباح، كان شعرها على أشد ما يمكن من النظام، وكذلك تنورتها الاسكتلندية وعقد اللؤلؤ الذي يحيط بعنقها، كل ذلك أظهرها في منتهى الأناقة. كانت وهي تواجه ابنها، ارستقراطية بكل ما تنطويه هذه الكلمة. وكانت أن تدخل في نفسه الرعب وهي تقول باستنكار وتهكم: «لا أظن ثمة حاجة إلى لغة الحانات هذه، يا ريف. فإذا كان لديك صداع، فأرى أن تذهب إلى مكان آخر لأنني، والسيدة جاكوبسن، كنا نتحدث بشأن شفاء ابنتها.»

ولكنه لم يهتم بمحاولتها التقليل من شأنه، فقال: «أحقاً؟»

أجابت رافعة الرأس: «نعم، ولن أسمح لأحد بالتفوق عليّ. انك تبدو متعباً، يا ريف.» وكان هذا تعبيراً مهذباً من جانبها عن الاشمئزاز. وكان هو يعرف هذا. بينما تابعت هي تقول: «وربما من الأفضل أن تترك هذا الأمر إليّ، وأنا متأكدة من أن الدكتور وبستر سيوافق على ذلك. وهذا الأمر كله لا يعدو أن يكون زوبعة في فنجان.»

استند ريف إلى الباب وهو يرى ضيق إيزوبيل، ولكنه لم

يكن ينوي الخضوع. فهذه المعركة مع أمه جاءت متأخرة، ذلك أنه لم يكن يريد أن يعرض مصلحته للخسارة، فقال يسألها رافعاً حاجبيه: «ماذا بالضبط؟ دعيني أعلم، يا أمي عما سيوافق عليه الدكتور وبستر.»

توترت شفتاها وهي تقول: «إنني متأكدة من أنك تدرك تماماً ما أعني، يا ريف. وهذا هو سبب وجودك هنا، أليس كذلك؟ وأظن أن هناك من أخبرك، وأظنه كومنز، بأنني هنا لمواجهة السيدة جاكوبسن. وأظنه أخبرك أيضاً أن هذه الفتاة ليست مريضة إلى الدرجة التي ظننتها أنت في البداية. فهي، كما ترى قد تحسنت كثيراً هذا الصباح، وأن لا شيء يمنع انتقالها إلى بيت الآنسة ماكلاي لقضاء فترة النقاهة حيث ترتاح يومين أو ثلاثة ثم تشفى تماماً...»

أجاب ريف وهو يتقدم من السرير مبتسماً للفتاة: «كلا.» ثم حوّل بصره إلى إيزوبيل حيث استقر عليها فترة ليعود فيقول: «ثم انه أصبح بيت السيدة جاكوبسن الآن وليس الآنسة ماكلاي.» وعاد ينظر إلى الفتاة يسألها: «وكيف حالك الآن؟»

ولكن صوت أمه الحاد الأجش منعه من سماع جواب كوري، وهو يسألها قائلاً: «ماذا تعني بقولك، كلا؟» وأمسكت بذراعه بعنف تجذبه مديرة إياه نحوها يواجهها وهي تتابع قائلة: «لقد سبق وتحدثت في هذا الأمر مع السيدة جاكوبسن، وقد وافقتني على رأيي. فليس من التعقل تركها هنا أكثر من ذلك.»

قال ريف بهدوء: «لقد قلت كلا. فقد قال الدكتور وبستر الليلة الماضية أن حالة المريضة لا يمكن التأكد منها قبل

ثماني وأربعين ساعة. وأنا أريدها أن تبقى لذلك الحين مهما حاولت أنت إقناع الطبيب بتغيير رأيه.»

نفخت الكونتيسة بأنفها وهي تقول بغضب: «أوه، إنك شبه نائم.» ولما لم تسمع لكلامها هذا جواباً، مشت نحو الباب، ثم عادت تقول: «سأتحدث إليك في هذا في ما بعد، حين تستعيد رشدك.» ولم يكن هذا وعداً منها بل تهديداً، ومن ثم تركت الغرفة.

وساد الغرفة بعد انصرافها، صمت ثقيل. وتكهّن ريف بأن الممرضة تتمنى الآن لو كانت في مكان آخر بعيدة عن هذا كله، بينما سادت ملامح إيزوبيل المرارة والكدر. لم يعهد أمه قط من قبل، تقوم بمثل هذا التصرف غير اللائق. فقد بدا وكأنها مستميتة في إبعاد السيدة جاكوبسن عن القصر. ولكن، لماذا؟ وما الذي فعلته هي وابنتها لتستحقا مثل هذه المعاملة؟

وبلهجتها البعيدة عن الاحترام قالت كوري، مخففة بذلك كثيراً من التوتر الذي ساد الغرفة: «إنها لا تحبنا، أليس كذلك؟» واغتنمت الممرضة الفرصة فانسلّت تخفي نفسها في الحمام الملحق بالغرفة.

ابتسم هو لكوري قائلاً: «إنها غاضبة مني وليس منكما. إنك تبدين أحسن كثيراً هذا الصباح. فقد كنت، عندما عثرت عليك أشبه بجرذ غريق.»

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه كوري، ولكن قبل أن ترد عليه، تدخلت إيزوبيل قائلة بحزم: «أريد أن أعيد كوري إلى البيت.»

بدا السخط على وجه كوري، بينما قال ريف: «لا أظن هذا

من الحكمة في شيء.» وعندما رآها تحدّق فيه، تمنى لو كان وجد وقتاً يحلق فيه ذقنه قبل قدومه رغم أن هذا، كما رأى، ما كان ليشكل أي فرق في ما حدث، إلا من ناحية احترامه لنفسه.

ردت هي قائلة بحدة: «إن ما تظنه لا يهمني.»

أخذ يتأملها وهو يفكر في ما أصبحت عليه علاقتهما من قوة أثناء الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، وكأنها قرأت أفكاره، فاحمر وجهها وأسرعت تقول: «أريد أن آخذ كوري إلى البيت اليوم. الآن. إنني لم أطلب إحضارها إلى هنا، وأنا لا أريد أن أسمع من يتهمني بأنني إنما أستغل معرفة سابقة... إنها أيضاً قالت إنني أستغل طيبتك وكرمك، وأن عليّ ألاّ آخذ كلامك بمأخذ الجد، وكون كوري هنا في القصر قد يأخذ عنه المستأجرون عندك فكرة خاطئة و...»

قاطعها: «إيزوبيل...»

قاطعته بدورها: «إنني شاكرة لك ما فعلته لأجل كوري. إنني أعرف أنها لولاك لكانت حالتها أسوأ كثيراً، كان يمكن أن تموت، ولكن ليس هناك سبب يمنع من أن تكون معي في البيت.»

قالت كوري وقد بدا الاشمئزاز في نظراتها: «آه، يا أمي. لا تدعيها تؤثر عليك، فهذا ما تريده هي. ألا تفهمين؟ إنها غاضبة فقط لأن ريف يحبنا أكثر مما يحب تلك المرأة السخيفة غريس.»

هتفت إيزوبيل وقد تملكها الذعر: «كوري. هيا اعتذري حالاً عما قلته.»

ومع معرفة إيزوبيل بأن ريف يراعي شعورها هي أكثر

www.liilas.com

مما يراعي شعور ابنتها، إلا أنه لم يوافقها على تأنيبها هذا لابنتها، فقال: «هذا غير مهم، أظنها كانت سمعت شيئاً مما دار بين أمي وغريس عندما وصلنا إلى هنا عصر أمس. وأظن معها حق. فإن أمي تظن أن بإمكانها أن تسيّر حياتي حسب مشيئتها.» ولوى شفتيه وهو يتابع قائلاً: «ولكنها لن تستطيع.»

قالت إيزوبيل: «ومع هذا...»

قاطعها: «ومع هذا لا شيء.» وكان صبره قد فرغ الآن، ولم يعد يحتمل إثارتها له برغبتها في اتباع رأيها. كما أنه لم يدرك سبب عناده هو في أن تبقى كوري هنا. ولكنه لم يشأ أن يراعيها وهو يقول بلهجة حادة: «أتريدين أن تتحملي مسؤولية أيّ انتكاس قد يصيبها؟»

قالت: «إنك تبالغ.»

قال: «أصحيح هذا؟» وتساءل عما إذا كان حقاً يبالغ، ولكنه رفض الاعتراف بذلك، وتابع قائلاً: «ومن يعتني بها في بيتك، أم انك تنوين أخذ إجازة لتمريضها بنفسك؟»

وبدا عليها التردد، ولكنها قالت: «إن كوري ليست بحاجة إلى ممرضة.» ولمعت عيناها بالدمع وهي تنظر إليه قائلة: «إن ما تعاني منه هو برد فقط.»

قال: «وإذا لم يكن هذا كما تقولين؟»

تنفست بعمق ونظر هو إليها بعد إذ لم يعد يستطيع إخفاء مشاعره. وبدت الرقة في عينيه. وبادلته هي نظراته بمثلها وقد بدا عليها الارتباك.

وأخيراً حوّلت نظراتها عنه، وكأنما أرادت أن تقطع ذلك الإحساس العاطفي الذي تملكهما، أسرعت تقول: «لا بأس.

لا بأس إذا كان هذا هو رأي الدكتور وبستر. إن بإمكان كوري أن تبقى هنا إلى الغد. أما الآن... الآن عليّ أنا أن أذهب.»

www.liilas.com

الفصل العاشر

أخذ ريف إيزوبيل إلى بيتها بعد زيارة الطبيب لكوري، وذلك في سيارة صغيرة ملائمة للطرقات الريفية. ولم يكن ريف يشعر برغبة في متابعة نقاشهما الماضي. ذلك أن وصوله إلى مبتغاه جعله يشعر بالرضى، ما ساعده على تركيز اهتمامه في الطريق. ولم يبد عليه أنه يعاني من نفس التوتر الذي كانت تعانيه هي لجلوسها بقربه. وتساءلت وهي تتنكر نظراته إليها في غرفة كوري، عما إذا كان الأمر كله مجرد لعبة منه يقوم بها لمعاكسة أمه.

وفجأة، تكلم قائلاً: «لا أظن أن الدكتور وبستر يتوقع منك أن تذهبي للعمل هذا النهار.»

سألته: «لماذا؟» وكان سؤالاً لا معنى له جعله يلوي شفتيه ساخراً وهو يجيبها قائلاً: «لو كنت مكانك لحاولت أن ارتاح قليلاً. فالارهاق يبدو عليك وكوري ستكون بأتم خير. اعدك بذلك. انك سمعت ما قاله الدكتور وبستر من أنه راض تماماً عن حالتها الصحية.»

قالت: «أحقاً؟ إذن، ألم يكن من الأفضل لو أنه أجاز لي نقلها إلى البيت؟»

قال: «أظن أن هذا أمر قد انتهينا منه...»

قاطعته قائلة: «كلا. انه أنت الذي انتهيت منه وليس أنا. انني لا اوافق على استعمالي وابنتي وسيلة لاغاظة أمك. انني واثقة من أنك لا تريدنا حقاً في القصر مع

وجود صديقتك فيه. فأنت لا تريد سوى مضايقة اسرتك...»

قاطعها قائلاً: «ليس لدي صديقة.»

سكتت برهة ثم قالت: «بل لديك.»

قال بإصرار: «قلت أنه ليس لدي صديقة.» ومع ان إيزوبيل كانت تتمنى الوصول بسرعة إلى بيتها، إلا أن شعوراً بالأسى تملكها وهو يصل بسيارته إلى البيت. ولم يكن ثمة سبب لهذا الشعور، بعد أن وصلت إلى حيث كانت تبغي. فإذا لم تكن كوري معها الآن، فستكون قريباً.

وعندما أوقف السيارة نزلت منها وهي تقول: «اشكرك إذ اوصلتني إلى البيت. وآسفة ان لم أكن لطيفة معك.»

قال: «أحقاً؟» واستند إلى السيارة يعبث بمفاتيحه بينما اتجهت هي إلى الباب، ففتحته وهي تسأله: «متى عليّ أن أذهب إلى القصر غداً؟ هل الساعة التاسعة هو وقت مبكر؟ أم الساعة العاشرة هو الأفضل؟»

أجاب وهو يتقدم نحوها: «سنتحدث بهذا الشأن. هل ندخل الآن؟»

قالت: «عليّ... عليّ أن استعد للذهاب إلى العمل.» وكان هذا عذراً واهياً، وكانا، هما الاثنان، يدركان ذلك. ودفع الباب وهو يقول: «فلندخل. أريد أن أرى ان كان كل شيء في الداخل على ما يرام.»

قالت: «بإمكاني أن أقوم بذلك.»

ودخلت مباشرة إلى المطبخ بحجة تفقد المدفأة وذلك لكي تحصل على فرصة تتمالك فيها مشاعرها. سألته وقد شعرت به يقف في الممر المؤدي إلى المطبخ: «أتريد قهوة؟»

أجاب: «نعم، إذا شئت.»

وكان جوابه يفتقر إلى الحماس.

قالت بصوت متوتر وهي تستند بظهرها إلى الحوض: «لا أرى معنى لما تقوم به حالياً.»

قال: «وما الذي أقوم به؟»

أجابت: «أعني وجودك هنا، بينما كوري في القصر. لقد كان ذلك برغمي، أليس كذلك؟»

أجاب: «نعم، وقد جعلت ذلك واضحاً.»

قال: «وما الذي تتوقعه الآن؟»

أجاب: «ما أتوقعه هو أن نقوم بمناقشة صديق لصديق ولو مرة.»

انفجرت قائلة: «ولكننا لم نكن صديقين قط.»

قال: «هذا ظاهراً. هل هي غلطتي أم غلطتك؟»

قالت: «انها ليست غلطة أحد.» وشعرت بالخجل من نفسها فقالت: «اننا... ليس بإمكاننا ذلك.»

سألها: «هل ذلك بسبب ما قالته أمي؟»

قالت: «كلا. انني... نعم... ربما...»

قال: «أم بسبب ما حدث الليلة الماضية؟»

قالت: «لم يحدث بيننا شيء الليلة الماضية. لقد كنا... أنت... كنت أنا في حالة انفعال شديد.»

لوى شفتيه قائلاً: «هل هذا كل ما تستطيعين قوله؟»

قالت: «ريف...»

قاطعها قائلاً: «آه، ها قد تذكرت اسمي.»

تمتمت وهي تترنح: «وهل بإمكاني نسيان ذلك؟» وقبل ان يستغل قولها هذا لمصلحته، سارعت تقول: «بالنسبة إلى كوري...»

قاطعها قائلاً: «ما الذي جعلك تظنين أن لدي صديقة؟» فذهلت لهذا السؤال، وحدقت فيه لحظة، ثم قالت: «وهل هذا مهم؟»

أجاب: «نعم، بالنسبة إليّ.» وعندما لم تجب، عاد يقول: «تحدثي إليّ.»

قالت: «لقد ذكرت كوري امرأة تدعى غريس.» ولم تعترف له بأن فضولها ثار منذ سمعته يذكر هذا الاسم لأمه. فتابعت تقول: «من هي؟»

أجاب ببطء: «غريس. حسناً، ان اسمها غريس كالدر وهي إبنة أخ السيد مالكولم. والسيد مالكولم هو، أعني كان صديقاً قديماً لأبي.» ورد شعره إلى الخلف وهو يقول مقطباً جبينه: «لا اظنني أعرف عنها شيئاً أكثر من هذا.»

كانت سخريته واضحة. وقالت: «ما دمت تقول ذلك.»

سألها: «ألا تصدقينني؟» آه، يا إيزوبيل ما الذي سأفعله معك؟

قالت هامسة: «ولكنني لم أقل انني لا اصدقك.»

قال: «كلا، بل أنا الذي قلت ذلك.»

قالت: «انك تعلم ما أعني.» واستندت إلى الحوض خلفها.

أمعن النظر في وجهها القلق ثم قال: «ربما ما تقولينه صحيح. ما الذي تريدين مني أن أقول؟»

قالت وقد جف فمها: «لا شيء. لا أظن أن عليك أن تقول شيئاً.»

قال وعيناه تجولان فوق وجهها: «هل أنت متأكدة؟»

قالت بلهجة متوترة: «أظن أن عليك أن تذهب.»

www.liilas.com

قال: «انك لا تعنين ذلك حقاً.» وكانت المشكلة هي أنها كانت تعلم أن كلامه صحيحاً.

قالت وقد خفضت بصرها: «بل أعني ذلك. انما أخبرني متى بإمكاني أن أذهب غداً لاحضار كوري، وأنا سأتفق مع سائق سيارة. لقد كانت كلير نكرت شخصاً يدعى ماكروجر...»

قاطعها قائلاً: «هل أنت خائفة مني، يا إيزوبيل؟ هل هذا هو الأمر؟ ومم تخافين؟ مني أنا أم من نفسك؟»

أرادت الابتعاد عنه، ولكنه فاجأها بقوله: «لا تخافي مني.»

لم تجب، بل توجهت نحو إبريق القهوة. وكان الهر بوتي جالساً على عتبة النافذة ينظر إليها. وسألها ريف فجأة: «هل تحسنين القيادة؟» وبينما كانت هي تتجنب النظر إلى ناحيته، كان هو قد استند إلى الجدار دون أن يبدو عليه أي أثر من المشاعر التي تتملكها.

سألته: «هل أحسن القيادة؟ ولماذا تسأل؟»

أجاب: «لأن بإمكانك استعمال السيارة الصغيرة التي جئنا بها، وهي الشوغان.» وألقى بالمفاتيح على منضدة قريبة وهو يتحول خارجاً من المطبخ، متابعاً قوله: «أرى أن تعودي إلى القصر حوالى الساعة السادسة والنصف.»

قالت وهي تعجب مما يقول: «أعود؟»

قال وعيناه باردتان بقدر ما كانتادافئتين منذ فترة: «إلى القصر، فتكونين مع كوري وهي تتناول عشاءها فتسر بوجودك، وتكونين في نفس الوقت قد أتحت للمرضة فترة استراحة.»

حدقت به قائلة: «هذه الليلة؟»

أجاب: «انني، طبعاً، لا اعني في الصباح. وبعد ذلك يمكنك احضار كوري إلى البيت بعد أن يقرر الدكتور وبستر ذلك.»

سألته: «هذه الليلة؟»

قال: «أهذا كل ما بإمكانك قوله؟ كلا، بل صباح الغد، وستتعشين معنا، بالطبع، ثم تمضين الليلة...»

فشهقت ذاهلة وهي تقول: «هذا مستحيل.»

قال: «ولماذا مستحيل؟»

أجابت: «لأنه مستحيل. إنني... ان امك...»

قاطعها قائلاً بلهجة قاطعة: «ليس لأمي شأن في ذلك. انك ضيفتي. وأمي ستحترم رغبتي.»

قالت: «وإذا لم تفعل؟»

قال: «بل ستفعل.» وارتجفت للحزم الذي بدا في لهجته، بينما كان يتابع قائلاً: «لا يمكنك البقاء هنا، وهذا هو الحل الأصوب.»

وفكرت في أن هذا ليس حلاً. ولكن، للهفتها لأن يخرج من هنا، هذا إلى الخوف... الخوف ليس منه فقط بل من ضعفها هي، لهذا لم تستطع مناقشته. هل تراه أحس بذلك؟ بمبلغ العصبية التي كانت تتملكها؟

وعندما خرج من البيت، كانت ترتجف بشكل مريع حتى انها لم تكد تفهم السبب في أنه ترك مفاتيح السيارة خلفه. ثم ما لبثت أن أدركت الآن فقط ما الذي قصده بسؤالها عما إذا كانت تحسن القيادة.

واختطفت المفاتيح واسرعت خلفه لتردها إليه، ولكن الوقت كان قد فات. وعندما رأته يصعد إلى سيارته الرانج

www.liilas.com

روفر، أدركت أنه قد ترك لها السيارة الصغيرة لتستعملها.

وصدمت وهي ترى تلك السيارة، كان سائقها موجوداً فيها. وتساءلت عما إذا كان ذلك السائق قد مر بجانب نافذة المطبخ متجهاً إلى الباب، دون أن يسمعاه، وهل تراه سيتحدث أمام الآخرين بما قد يكون رآه من النافذة؟ ولكنها ما لبثت أن نفت هذا الخاطر من ذهنها، ذلك أن ريف هو مالك القرية، ولا يمكن لأحد أن يأتي على سيرته، وخاصة سائق سيارته، ثم انه كان موقفاً سيارته بعيداً، منتظراً قدوم سيده مهما طال به الوقت.

كان هذا يعني أن بإمكانها استعمال السيارة لذلك النهار. ولكن لم يكن في نيتها استعمالها، حتى وصلت إلى العيادة، سائرة على قدميها، لتجد الدكتور وبستر يصر عليها في أن ترتاح ذلك النهار، عند ذلك ظهرت الفائدة من السيارة.

ولكن السيدة وبستر لم توافق زوجها الطبيب على هذا، فقد كانت تريدها أن تسد الفراغ الذي كانت الممرضة فوللر قد تركته في العمل، قائلة لها بخشونة: «ما كان لك أن تتركي ابنتك تذرع انحاء المنطقة هنا مسببة كل انواع الضرر. ربما كانت كلير مخطئة في عرض هذه الوظيفة عليك. ويظهر أن ابنتك معتادة على شوارع المدن. صحيح أن اخطار تلك الشوارع مثلها هنا، ولكنها على الأقل، لا تسبب الإساءة للناس الآخرين.»

وارادت إيزوبيل أن تسألها عما تعنيه بالناس الآخرين، ولكنها كانت تعلم. ذلك أن الكونتيسة لم تكن هي الوحيدة التي كانت تعترض على صلتها بريف وتمنت لو كان بامكانها أن تشرح لها أن الذنب لم يكن ذنبها في هذه الصلة

التي نشأت بينها وبين الايرل. ولكنها فكرت في أن أمامها الآن اموراً أهم من ذلك عليها أن تؤديها، إذ عليها أن تتصل هاتفياً قبل كل شيء بالسيدة جاكوبسن والدة ادوارد، وذلك قبل كل شيء، وهكذا عليها أن تقوم برحلة إلى ستراثمور. وأثناء ذلك تشتري كل أنواع الأغذية التي تحبها ابنتها.

وتلقت السيدة جاكوبسن خبر ما تعرضت له حفيدتها كوري، بهلع زائد لم يخفف منه أن تعلم بأنهم في القصر يعتنون بها. ولم تتردد في لوم إيزوبيل واعتبارها مسؤولة عما حدث. معتبرة أن كوري هي على أبواب الموت، رغم تطمين إيزوبيل لها. ثم قالت انها ستأتي غداً لرؤية كوري.

وأغلقت ايزوبيل أذنيها إزاء هذه الزيارة، لتنجح في النهاية، في اقناع الجدة بتأجيل زيارتها هذه يوماً آخر حتى يسمح الدكتور وبستر بعودة كوري إلى البيت، إذ ليس من اللائق أن يستضيف سكان القصر الزائرين أيضاً علاوة على المريضة وأمها. وأنهت الجدة الحديث بقولها: «تأكدي إذن من اهتمامهم التام بها، فإن كوري ليست كأية فتاة أخرى. انها حفيدتي.»

وتساءلت إيزوبيل ساخرة، عما إذا كانت والدة ريف أو حتى آل وبستر، يهتمون بكون كوري حفيدتها.

وعادت بذهنها إلى دعوة العشاء هذا المساء، ذلك أنها لم تصدق أن والدة ريف سترحب بها رغم تطمين ريف لها. لقد كانت هذه الدعوة لها إحدى طرق ريف لاستفزاز أمه، وعليها هي أن تتحمل العبء.

ولكن إيزوبيل بالرغم من اعلانها له بعدم رغبتها في الحضور، فقد وجدت نفسها هناك في الساعة السادسة

www.liilas.com

والنصف بالضبط. وأوقفت السيارة الصغيرة قرب المدخل لا تدري ماذا تفعل بها. وتنفست بارتياح وهي ترى مديرة المنزل تخرج لاستقبالها، وهي تقول: «ان ابنتك بانتظارك يا سيدة جاكوبسن. أتركي السيارة حيث هي، وسيعيدها أحد الرجال إلى مكانها.»

وسارت إيزوبيل في الممر الذي يقود إلى حيث كانت ابنتها ترقد، والذي كانت صور اسلاف آل ليندسي على طول الجدار ترمقها. ونكرتها صور بعضها بريف ولكن الملامح الباردة الصلبة لم تكن لتشابه ملامحه الموحية بصفاته الدافئة.

وكانت كوري تنتظرها وعلى ركبتيها صينية العشاء وكانت تأكل بشهية وحماس. واعترفت أنها مسرورة بعودتها إلى البيت بعد أن اصابها الضجر هنا، قائلة ان ريف زارها أثناء النهار، وعدا ذلك، كانت وحدها طوال اليوم.

قالت عندما جاءت خادمة تأخذ منها الصينية: «ليس لديهم تلفزيون في الغرف. هل تتصورين؟ كل هذه الأموال التي يملكونها وليس لديهم تلفزيون.»

ابتسمت الأم قائلة: «ليس كل شخص يجب أن يمضي اوقات فراغه في التفرج على برامج التلفزيون. هنالك أشياء أخرى.»

قالت كوري عابسة: «نعم. هذا صحيح، المجلات مثلاً. لقد اعارتني السيدة فيلدنغ بعض المجلات، ولكنها كانت مملة، فهي كلها عن الجياد والكلاب وصيد السمك.»

قالت الأم: «على كل حال، ستذهبين إلى البيت غدا. وبعد غد ستأتي جدتك لزيارتك.»

وكان سرورها بالغاً، فقد كانت زيارة جدتها تعني لها الحلوى والهدايا، وسألت: «هل ستمكث هنا طويلاً.»

قالت الأم: «لا أدري، سنرى. أما الآن، فهل لك أن تخبريني لماذا لم تكوني في المدرسة أمس؟»

هزّت كوري كتفيها قائلة: «لأنني لم أكن هناك.» ثم قالت تغير الموضوع بدهاء: «انك متأنقة في ثيابك هذه الليلة، فهل ستذهبين إلى مكان ما.»

تنهدت إيزوبيل. لقد كان ثوبها المخملي الأسود بسيطاً، ولكن كميه الطويلين كانا جميلين.

أجابتها: «انني مدعوة للعشاء مع الايرل وأسرته. والآن، لماذا لم تكوني في المدرسة بدلاً من اللعب في البحيرة وتعرضي نفسك للخطر؟»

قالت كوري بدهشة طبيعية: «هل ستتناولين العشاء هنا؟» ومع ان إيزوبيل كانت تعلم أن كوري تتجنب مرة أخرى، الجواب الصريح، فقد أجابت قائلة: «نعم.» ومدت يدها تتأكد من ثبات شعرها، وكانت قد ضفرته ورفعته فوق قمة رأسها بشكل تاج، فكان مظهره اكثر أناقة من المعتاد. وكانت تأمل ان يمنحها ذلك شيئاً من الثقة بالنفس. وتابعت تقول: «لقد دعاني الايرل. ألم يخبرك بذلك؟»

أجابت كوري: «كلا.» ومالبثت أن عادت تقول وقد بدا عليها الذهول: «هذا هو السبب إذن في أن غريس المقرفة أقبلت متطفلة بعد الظهر.»

تنحنحت إيزوبيل ثم سألتها: «غريس؟ أعني الآنسة كالدر؟»

أجابت كوري: «نعم. اتعرفينها؟»

www.liilas.com

أجابت إيزوبيل بحذر: «سمعت عنها. ماذا كانت تريد؟»

أجابت كوري: «لقد سألت عنك في الحقيقة. وقد عرفت الآن السبب.»

عادت إيزوبيل تسألها بعصبية: «وماذا... ماذا أرادت ان تعلم عني؟»

أجابت كوري: «أرادت أن تعلم أين كنا نعيش، وكم عمرك. وقد أخبرتها أن ريف هو صديق لنا. حسناً، إنه كذلك، أليس هذا صحيحاً؟ وإلا ما الذي كان يدعوه إلى دعوتك إلى العشاء؟»

وتمنت إيزوبيل لو كانت تعرف جواباً مرضياً لهذا السؤال. وقالت أخيراً: «أظنه يشعر بالأسى لأجلي.»

وتساءلت عما يمنع أن تكون هذه هي فعلاً الحقيقة...

الفصل الحادي عشر

وقف ريف عند النافذة المفتوحة راجياً أن يتمكن الهواء البارد من إزالة صداعه. وكان سبب صداعه أن والدته وغريس شغلا كل وقته، بينما لم يظهر على إيزوبيل في موقفها الحرج بينهما بهجة.

ذلك أنه مهما كانت الأعذار التي تذرع بها، محاولاً إقناع نفسه بأن افتتانه بتلك المرأة، إيزوبيل، ما هو إلا مجرد افتتان عارض، فإن مشاعره كانت تحدثه بشيء آخر.

ما الذي حدث له؟ لم يسبق له قط أن تملكته مثل هذه المشاعر المدمّرة من قبل، حتى ولا في بداية زواجه من سارة. وبالرغم من أنهما كانا قد أمضيا أوقاتاً بهيجة قبل الزواج، فقد أقنع نفسه بأن ذلك النوع من الحب الذي يجمعهما هو وسارة، كان يكفي.

وبجانب هذا، فإن فكرة أن سارة كان ممكناً أن تسمح له بالتكلم معها بنفس الحرية التي سمحت له بها إيزوبيل في مطبخ بيتها صباح هذا اليوم، هذه الفكرة كانت مضحكة. فإن هذا كان سيشكل إهانة لأحاسيسها. لقد كانت سيدة محترمة بكل معنى الكلمة. ولو كان عاملها كما يعامل الآن إيزوبيل لتأذى شعورها حتماً وشعرت بالإذلال وجرح الكرامة.

ولكنه حدث نفسه بعنف، انه كان يحبها... بل هو ما زال يحبها حتى الآن، وإنما كل ما في الأمر أنه كان يسمح

للناحية المظلمة من شخصيته بأن تملي عليه أحاسيسه.

وأطلق شتيمة وهو يصفق النافذة يغلقها إزاء الظلمة في الخارج، ثم أخذ يذرع أنحاء الغرفة. وفكر باشمئزاز في أنه أشبه ما يكون بغلام لا خبرة له.

ربما كان راغباً بالارتباط مع إمرأة ولكن، لا. ليس أية امرأة. فلو كان الأمر كذلك لكانت غريس. ذلك أنها منذ رحيل عمها وهي تحاول كل ما بوسعها لكي تجعله يهتم بها، إنها طبعاً، كانت تطمح إلى ما هو أكبر كثيراً من هذا، أي الزواج، ولكنها لم تكن تلمس ما يضمن لها ذلك، وهي ما زالت حتى الآن رغم أنها أدركت كنه شعوره نحو إيزوبيل. وتجهم وجهه وهو يفكر في ذلك وكان متأكداً من أن أمه أدركت نفس الشيء، وهذا ما جعلها متلهفة إلى إخراج كوري من القصر. وما بعث السخط إلى نفسها حين أخبرها بأنه دعا إيزوبيل إلى العشاء.

لقد صرخت به عند ذاك، بصوت مرتجف: «لا بد أنك خرجت عن عقلك، يا ريف. ألا يكفي أن هناك الدكتور وممرضته رانحان غاديان على مدى الساعات؟ فلماذا عليّ أن أستضيف الأم؟ هل عليّ أن أذكرك يا ريف، بأن هذا بيتي؟»

وأجابها عند ذاك بلهجة جامدة: «وهو بيتي أنا أيضاً، فلماذا لا يحق لي أن أستضيف امرأة إذا أردت ذلك؟ إن هذا نفس ما تقومين به أنت. وربما يريحك هذا من أن تقومي به أنت لأجلي.»

ردّت عليه أمه قائلة: «كنت أوافق لو أنها كانت امرأة مناسبة. إنني أدرك تماماً ما الذي تقوم به في الحقيقة، يا ريف. فأنت تردّ بهذا على دعوتي لغريس بأن تبقى هنا،

أليس كذلك؟ هذا حسن جداً إذا كنت مصراً، فأنا سأطلب منها الرحيل حالاً.»

قال معترضاً بهدوء: «علي ألاّ يكون ذلك باسمي أنا.»

إنه يتمنى لو كان الأمر فعلاً كما تقول أمه. وتمنى لو يجد من يخبره عما في إيزوبيل من صفات تجعله يتصرف بهذا الشكل. ذلك أنه لا يوجد بينهما شيء مشترك. ولكنه مع هذا، لا يستطيع أن ينفيها من ذهنه.

لقد قالت أمه عند ذاك: «حسناً، أظنك شخصاً غير مسؤول. وأنا لا أظنك مهتماً إلى هذا الحد بالسيدة جاكوبسن. كل ما في الأمر انك تتخذها وسيلة لإغاظتي.»

تنهد ريف وهو يتذكر كل هذا، مسلّماً بمرارة في أن أمه ربما كانت على صواب. لا بد أنها على صواب. ومدّ يده يتناول صورة زوجته الراحلة، وأخذ يحدّق عابساً في وجهها الرقيق، وهو يطمئنها بصمت إلى أن اهتمامه بإيزوبيل غير جديّ وأنه لا يعدو أن يكون وهماً...

وبعد... وقطع عليه أفكاره قرع على الباب. وألقى نظرة سريعة على ساعته علم منها أن الوقت تجاوز الحادية عشرة. وكان إزعاجه في مثل هذا الوقت شيئاً غير عاديّ.

وتسارعت دقات قلبه وهو يفكر في أن الأمر قد يكون متعلقاً بكوري. أترى حالتها قد تدهورت؟ ذلك أنه كان أعطى تعليماته لمدبرة المنزل في أن تعلمه بتطور حالتها فيما لو حدث أيّ شيء.

وأعاد الصورة إلى مكانها، ثم اتجه نحو الباب بسرعة يفتحه دون تردد. كان قد خطر له فجأة أن القادم قد يكون إيزوبيل، ولكنه سرعان ما نفى هذا الخاطر وقد

www.liilas.com

تذكر أنها على الأقل لا تعرف مكان الجناح الذي يسكنه...

ولكن غريس كانت هي التي تقف عند الباب.

ووقف ينظر إليها وقد تسرّبت خيبة الأمل إلى نفسه. ذلك أن تكون هي من اقتحمت عليه عزلته هذه وليست إيزوبيل، هو شيء لم يستطع أن يتقبله، كما أنه أشعره بالإحباط... والانسحاق أيضاً. وثارت ثائرته. أترى هذا من تدبير أمه؟ إذا كان الأمر كذلك، ربما كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة.

ولكنه كان يدرك أنه لن يفعل هذا. ليس بإمكانه ذلك. ومهما كان الحماس الذي يراوده لإحباط مساعي أمه، فهو لم يكن يشعر بأية عاطفة لغريس... سواء بشروط أم بغير شروط. هذا إلى أنه أدرك بعد أن هدأ غضبه، أن مثل هذه الوسائل ليست من طباع أمه.

وهتفت غريس تقول: «آه، يا ريف. كنت أرجو أن تكون ما زلت مستيقظاً.» وعادت تنظر إليه، وتابعت قائلة: «إنني راحلة في الصباح وأردت أن أودعك.»

قال: «تودعينني؟» وكان يعلم أن صوته كان جامداً مرتبكاً، ولكنه لم يستطع تلافي ذلك. فقد كان هذا آخر شيء يتوقعه.

قالت: «نعم، أودعك. إنني أعرف أنك تترك البيت أحياناً، باكراً في الصباح فلم أشأ أن يفوتني توديعك.»

واستطاع ريف أن يخفي عدم تصديقه لعذرها هذا فقال بأدب: «ولكن هذا أمر مفاجيء، أليس كذلك؟ لم أكن أظنك مستعجلة للعودة إلى غلاسكو.»

أجابت وهي تتدلل بصوتها بشكل ملفت: «ظننت أنه يسرّك أن أرحل، فقد قالت أمك ان لك علاقة ما مع السيدة جاكوبسن،

فلم أشأ أنا أن أعترض طريقك، رغم انني لم أصدقها في البداية. أعني أنك كنت معتزلاً النساء منذ وفاة سارة. ولكن ربما تلك العلاقة، كما قالت أمك عنها، هي مجرد علاقة مؤقتة... وبعد هذه الليلة. على كل حال...»

توتر فمه وهو يقاطعها قائلاً: «ومتى أخبرتك أمي أن لي علاقة مع السيدة جاكوبسن؟»

أجابت: «وهل يهمك هذا؟ لماذا لا تدعوني للدخول فنكمل حديثنا هناك؟ فالهواء في الممرّ هنا بارد.»

حدّق فيها بغضب، ولكنه لمح في منعطف الممر حركة ما. كان هناك شخص آخر في نهاية الممر، شخص أخفى نفسه بسرعة حالما أدرك انكشاف أمره.

«ما الذي...» ومر من أمام غريس وهو يطلق شتيمة، ثم انطلق يجتاز الممر بسرعة. فقد قوي الشك عنده في أنها أمه قد جاءت لترى نتيجة السم الذي كانت نشرته، فأثار حنقه كيف جرؤت على أن تتحدث عن سلوكه مع غريس؟ كيف جرؤت على وصفه بعدم المسؤولية، ثم تعتبر أن اهتمامه بإيزوبيل هو شيء حقير ومؤقت؟

ولم يخطر بباله في هذه اللحظة أنه هو نفسه كان يقوم بمثل هذا الاستنتاج منذ فترة قصيرة. فقد كان تقييمه لنوع انجذابه إلى إيزوبيل بعيداً عن أفكاره الآن بقدر ما كانت تلك المرأة التي تركها على باب غرفته بعيدة عن مشاعره. كان غاضباً يملؤه الاستياء، وكان يريد أن يفرغ جام غضبه وخيبته بأي شكل.

ولكنه عندما وصل إلى منعطف الممر لم ير أثراً لأمه. فقد كان ذلك الشخص القاتم اللون والذي كان يجري بسرعة

www.liilas.com

في الاتجاه المعاكس، كان هو إيزوبيل نفسها. ولم يكن بحاجة إلى ذكاء كبير لكي يدرك أنها هي وليست الكونتيسة من رأى على بابه.

وكان تصرفه سريعاً لا التباس فيه. ذلك أنه بالرغم من جهوده في إقناع نفسه بأن إيزوبيل لا تعني له شيئاً، وأن تأثيرها على أفكاره ما هو إلا انجذاب عابر لا أكثر، فقد كان لذعرها الظاهر أثر بالغ على نفسه. لقد أدرك ما عسى أن يكون تفكيرها بعد أن رأت غريس عند باب غرفته وسرعان ما وجد نفسه يهتف باسمها.

وقفت، وأدرك من استدارة كتفيها وهي تستدير لتواجهه، أنها فعلت ذلك برغمها. كان ثمة اشمئزاز ومذلة في ملامحها، ومع أنها كانت تجاهد لكي تبدو متمالكة لنفسها، فقد كانت عيناها زائغتين.

سألها: «هل كنت تبحثين عني؟» وأدرك حتى قبل أن تتلفظ بكلمة، أنه لن يتلقى منها جواباً يرضيه.

أجابت وقد تصلبت شفتاها: «أنا... لا بد أنني ضللت طريقي.» وأعجب هو بشجاعتها في إنكارها بينما كانت هي تتابع قائلة: «كنت ذاهبة للإطمئنان على كوري، فوجدتها نائمة.»

قال: «أحقاً... كنت أظنك أنت أيضاً نائمة.»

قالت وقد لوت شفتيها بمرارة: «نعم. إنني متأكدة من أنك ظننت ذلك.»

نظر ريف خلفه ولما اطمأن إلى أن غريس أبعد من أن تتمكن من سماع حديثهما، قال لها: «لماذا لا تأتين إليّ لتشاهدي جناحي؟»

أجابته وقد بدا عليها الجمود: «لا أظن ذلك.»

قال: «ولما لا؟»

أجابت: «لما لا؟ ألا تظن أن... زائرة واحدة... تكفي؟»

ردّ عليها بسرعة: «إنني لم أطلب من غريس القدوم إلى هنا.»

وعندما رفعت حاجبيها غير مصدقة، شعر بأن عليه أن يدافع عن نفسه، فقال بضيق: «إنني لم أفعل ذلك. أتظنين أنها كانت ستبقى واقفة عند الباب لو أنني كنت أريد رفقتها؟ لقد جاءت قبل أن... تضلي طريقك بدقيقتين.» وكانت السخرية واضحة في لهجته.

واتجهت عينا إيزوبيل نحو المرأة وكأنها تزن صحة كلامه ثم قالت: «حسناً، أظن كلامك معقولاً.»

قال بنفس السخرية: «شكراً.»

قالت وهي تنظر إلى ملابسه: «إنما عليك أن تعترف بأن هناك سبباً للشك.»

أجاب: «لقد كنت أستعدّ للنوم. أحب أن أتحدث إليك قليلاً، أرجوك.»

نظرت إليه بقلق قائلة: «ليس الآن.»

قال: «ولماذا ليس الآن؟»

قالت: «إن الآنسة غريس...»

قاطعها قائلاً: «فلتذهب الآنسة غريس دون عودة.»

«حسناً، أرجو المعذرة!» ولم تستطع غريس بلهجتها الساخرة وهي تنطق بهذه الكلمات، أن تخفي غضبها العنيف وهي تقف بجانبهما دون أن ينتبها إلى اقترابها منهما. وأدرك ريف على الفور أنه كان عليه أن ينتظر

www.liilas.com

ذهابها قبل أن يبدي شعوره نحو إيزوبيل بهذه الصراحة. وأضافت غريس تقول: «سأراك فيما بعد، يا عزيزي. فأنا أراك مشغولاً حالياً. إياك أن تقوم بعمل أحمق.»

وألقت نظرة ساخرة على وجه منافستها المتوهج ثم استدارت مبتعدة عنهما نحو نهاية الممر.

قالت إيزوبيل: «عليّ أن أذهب...»

قاطعها قائلاً: «لماذا؟»

رفعت إليه عينيها قائلة: «إنك تعلم لماذا.» وكانت غريس قد ألقت ناحيتهما بابتسامة متكلفة قبل أن تدخل غرفتها. وتابعت إيزوبيل تقول: «إن هذا... هذا غير لائق.»

قال عابساً: «وما حدث هذا الصباح لم يكن لائقاً هو أيضاً.» ثم أسرع يقول: «إيزوبيل... إنني بحاجة إليك. إنني أعني ذلك. لا تبتعدي عني الآن. ادخلي لنتحدث قليلاً.»

كانت تعلم أنه ما كان لها أن تستجيب له. ولكن في ما يتعلق به، كان هذا ما عليها أن تفعله. ثم لماذا؟ هل لأنها صدقته حين قال إنه بحاجة إليها؟ أم أنها شعرت بالأسف لأجله لفقدانه زوجته؟ كلا!

ذلك أنها إذا كانت صادقة مع نفسها، فعليها أن تعترف بأن شعورها وحاجتها إلى ريف لندسي، لا يختلفان عن شعوره هو وحاجته إليها. ومهما حاولت أن تدافع عن نفسها، فإنها لن تغيّر من الحقيقة.

لم يكن في نيتها أن تستكشف أنحاء القصر، ولا أن تقوم بأي شيء سوى العودة إلى غرفتها لتنام رغم أنها لم تكن تشعر بالرغبة في النوم بعد تلك الساعتين المزعجتين اللتين أمضتهما برفقة والدة ريف والآنسة غريس كالدر.

ولكن ذلك قد انتهى الآن ومن غير المحتمل أن يتكرر. وكل ما أرادت أن تفعل، هو أن تطمئن على ابنتها، ثم تعود إلى غرفتها. فهي لم تفكر قط في أي شيء آخر.

ولكن هل هذا صحيح؟ كانت فقط تتساءل وبكل براءة، أين عسى أن تكون غرفة ريف. فحيث أن غرفتها التي تنام فيها كانت بالغة الجمال والراحة، فقد كان من الطبيعي كما حدثت نفسها، أن تشعر بالفضول لرؤية الجناح الذي يحتله ريف. ولكنها عندما تركت غرفة كوري، وجدت نفسها تسير، دون وعي، وفي الاتجاه المقابل. ولكنها ما أن سارت عدة خطوات حتى أدركت خطأها. ولم تدرك إلى أين أدّت بها براءتها إلا عندما استدارت حول المنعطف، لترى غريس واقفة على باب ريف.

قال لها: «أخشى أن ليس بإمكاني أن أقدم اليك سوى هذا الكوب من عصير البرتقال.» فاستدارت إليه باضطراب وهي تقول: «آه، ولكنني لست معتادة أن اتناول شيئاً في وقت متأخر.»

«حاولي بصورة استثنائية.» ونظر إليها ملياً، ثم قال: «إنني آسف بشأن العشاء. فالأمر لم يكن كما كنت أتوقع.»

قالت: «كلا، ولكنه كان كما توقعت أنا بالضبط.»

قال: «لو لم تكن غريس هناك...»

قاطعته: «إن والدتك كانت ستتصرف نفس الشيء. تماماً كما ستتصرف فيما لو علمت أنني هنا.» وجالت بنظرها في أنحاء الغرفة البسيطة إلى حد مدهش.

قال: «فلنبدأ حديثنا من جديد. إنني آسف بشأن العشاء، ولكنني لم أشأ احراجك. كنت فقط أحب أن أمضي معك بعض الوقت.»

www.liilas.com

قالت: «ان تمضي بعض الوقت مع امرأتين مختلفتي الغرض، أو ربما لنفس الغرض؟»

قال وقد بدأ صبره ينفد: «لم يكن ذلك هو غرضي. هذا الصباح...»

قاطعته قائلة: «من الأفضل أن ننسى هذا الصباح.» وابتعدت عنه لتضع كوبها بعيداً، ثم عادت تستدير إليه.

فقال: «إنك لا تعنين ذلك.»

أجابت: «بل أعنيه.»

قال: «يمكنني أن أصدق هذا.»

أسرعت تقول: «وهكذا، لا يهمني إنشاء علاقة معك.»

نظر إليها بعينين ضيقتين وقال: «وهل كنت طلبت منك ذلك؟» وجمد الدم في عروقها النظرة العنيفة المتحدية التي رمقها بها، وهو يتابع قائلاً: «كل ما أتذكره، هو أنني دعوتك إلى غرفتي لتناول كوب من عصير البرتقال، لا لشيء آخر. وهذا طلب غاية في البراءة. ألا توافقينني على ذلك؟»

قالت: «هذا غير صحيح. وأنت تعرف هذا. فأنت لم تطلب مني الدخول إلى هنا فقط لتناول كوب من العصير. أنا أعلم هذا كما تعلمه أنت، فلماذا لا تتوقف عن هذه الألاعيب؟»

سألها قائلاً: «ولماذا قبلت دعوتي إذن؟» ولما لم تكن إيزوبيل قد فكرت في هذا قبل أن تفتح فمها، فقد سادها الارتباك وهي تجيبه قائلة: «حسناً، إنني... لأنني صدقتك... في البداية.» لقد كذبت عليه، وعندما رأت أنه لم يصدقها، أضافت تقول: «اسمع. لماذا لا أخرج الآن قبل أن يقول أحد منا ما لا يعنيه حقاً؟»

قال بهدوء: «أو يفعل شيئاً؟ كما سبق وقلت بنفسك؟»

قالت: «ليس هذا ما قلته أنا.»

قال: «كلا؟»

قالت: «كلا، لقد أوضحت فقط.» وسكتت فجأة ثم تابعت تقول: «ظننتك فهمت.»

قال: «فهمت ماذا؟»

توهج وجهها وأجابت: «إنك تتصنع الغباء ليس إلا.»

قال: «كلا، هذا غير صحيح.»

قالت بمرارة: «عليك أن تعلم انني وإدوارد كنا سعداء جداً بحياتنا الزوجية.»

قال: «أحقاً؟»

قالت: «نعم، كما أن زوجتك لم تكن هي أيضاً...»

قاطعها قائلاً: «دعي سارة بعيدة عن كل هذا.»

وعاد يحبس بعنف، ولكن إيزوبيل كرهت أن يهددها بهذا الشكل، فردّت عليه بغيظ: «كلا. ولماذا أفعل ذلك؟ لقد ماتت هي أيضاً، وأنا آسفة. ولكنني أفضل أن أنعت بالبرود على أن أنعت بأنني غريبة الأطوار، والتي هي طريقة مهذبة يراد بها أن ليس بإمكانك معالجة أمورك.»

قال: «اخرسي.»

قالت تدافع عن نفسها: «لا بأس أن تسخر مني أنت، أما إذا حاولت أنا...»

قاطعها بحدة: «قلت لك اخرسي.» وقبل أن تجد وقتاً تستمتع فيه بانتصارها الصغير عليه، كان يكرر قائلاً: «قلت لك اخرسي.»

ونظر إليها بعينين متقدتين وهو يقول: «ما بك يا إيزوبيل. إنك لا تعرفين ما تفعلينه بي، إما أن تدعيني

www.liilas.com

أتصرف كما أشاء، أو تخرجي من هنا، الآن.»

سألته: «أهذا ما تريده؟»

أجابها قائلاً: «إنك تعرفين جيداً ما أريد.»

الفصل الثاني عشر

استيقظ ريف وقد غمره شعور غير عادي بالنشاط والبهجة. وبقي عدة دقائق مستلقياً في السرير مستمتعاً بما يحس به من صفاء في ذهنه، دون أن يحاول التفكير في أسباب حالته الحاضرة. فقد كان يكفيه أنه لم يفكر في زوجته الراحلة حالما فتح عينيه وأن أشعة الشمس التي تنساب من النافذة هي مصدر سرور وليس تعاسة.

ولكن سبب عدم انسدال الستائر على نافذته، بدأ يزعجه، فقد كانت هذه مهمة خادمه كل صباح. وما دامت الآن غير مسدلة فهذا معناه أنه هو الذي كان أزاحها أثناء الليل بنفسه، ولكن متى ولماذا لم يعد إلى إسدالها مرة أخرى؟ وبالرغم من الخمول الذي يحس به، فقد أرغم ذهنه على العمل.

وسرعان ما حدث ذلك. لقد كان يقف أمام النافذة في الليلة الماضية عندما جاءت غريس تقرع بابه، ثم تقاطع حديثهما إيزوبيل، ليعيدها بعد ذلك إلى هنا...

وخفق قلبه بعنف مؤلم، وجرى الدم بسرعة في عروقه، ونهض من سريره وقد ارتسمت على فمه ابتسامة انتصار دون وعي منه، ولكن ذلك كان لفترة قصيرة جداً عاد بعدها يستعيد أحداث الليلة الماضية.

وأغمض عينيه لحظة يطرد من ذهنه أفكاره غير المستحبة. ولكن صورة إيزوبيل كانت مطبوعة على باطن جفنيه.

وفتح عينيه ليرى يديه ترتجفان والعرق ينضح منهما. وأغضبه هذا. هل كتب عليه أن يفلت من شرك، ليقع في آخر؟

واختطف صورتها من على المنضدة، ولكنه هذه المرة لم يشعر بأي اطمئنان وهو ينظر إليها. وما لبث أن ألقى بالصورة في درج هناك، وقد انتابه شعور باليأس.

وتوتر فمه وهو يحدث نفسه بأنه كان شعر بالشفقة عليها، في ذلك الحين ليس إلا. كما كان يدفعه إلى ذلك رغبته في إغاظة أمه لمحاولتها السيطرة عليه، أما سروره بالحديث معها، أو حتى مضايقتها، فهذا لا علاقة له بالحب، بل بالانجذاب الشكلي.

وعندما قالت له إن زواجه لم يكن يمنحه رضى كاملاً، تملكه الغضب والاستياء منها لإتيانها على ذكر زوجته.. لم يكن يريد أن يفكر في سارة أو يسمع اسمها من بين شفتي إيزوبيل. فقد كان زواجهما دوماً شيئاً محترماً عنده.

ولكنه الآن يتساءل عما إذا لم تكن سارة قد اعتادت أن تشعره بالضيق رغم كل شيء؟ ولكن، كلا، لقد كانا هو وسارة، زوجين في منتهى السعادة. وكانا راضيين قانعين، وهذا شيء نادر بين الأزواج.

ولكنه تساءل بأسى عما إذا كان ذلك الرضى لا يعدو أنه كان يشمل زواجهما بشكل عام خاصة بالنسبة إلى زوجين شابين في سنهما ذاك. وأنه ما كان ليستمر بالنسبة إلى من هما أكبر سناً، قد فارقتهما فورة الصبا واندفاعه، فهل كان من الممكن أن يدركه الملل من سارة لو لم يكن هناك هدف

إنجاب طفل يملأ عليه حياته؟ ولو أنها كانت بقيت حية وإبنها، فهل كان عند ذاك، سيبقى على صبره عليها، كما كان دوماً؟

واختطف معجون الحلاقة بعصبية، وأخذ يضع منه على وجهه. ما أشدّ غبائه إذ يسترسل في مثل هذه الأفكار. واعترف برغمه بأن أمه ربما كانت على حق، وأن الوقت قد حان لكي يجد لنفسه زوجة أخرى. فهو قد بالغ في عزلته وانطوائيته.

وبعد أن انتهى من حلاقة ذقنه، مخلفاً فيها عدة جروح تسببت عن يده غير الثابتة، وجد نفسه يتساءل عن السبب الذي جعل إيزوبيل تتركه. وحاول أن يقنع نفسه بأن هذا الأمر لا يهمه، ولكن الحقيقة بقيت وهي أن هذا جرح إحساسه وجعله يشعر بصغره. إنه كان يعلم بأنها ستكون مصدراً للإزعاج منذ اللحظة التي رآها فيها في المحطة. ولكنه كان يظن في أنها ستسبب الإزعاج لأمه، وليس له.

وعندما انتهى من ارتداء ثيابه، كان الوقت قد أصبح الثامنة والنصف، ففكر في أن ينزل لتناول طعام الإفطار مع أمه، وليس في غرفة المكتبة كما اعتاد.

ولكنه عندما دخل غرفة الإفطار، لم يجد سوى زوجة أخيه على المائدة. وكانت كلير تتناول القهوة وتقرأ صحيفة الصباح، وامتزجت عداوته لها بقلقه لعدم رؤيته إيزوبيل. إذ من المؤكد انها، أي إيزوبيل، كانت تعلم بأنهم ينتظرون منها أن تشاركهم الإفطار. أم أنها تشارك ابنتها الطعام؟

قال باقتضاب وهو يرى أن مكان أمه لم يشغل كما أن

www.liilas.com

غريس لم تكن موجودة: «صباح الخير. إنك تنهضين من النوم مبكرة.»

منحته كلير ابتسامة متوترة، وأخذت تطوي الصحيفة بدقة، وهي تقول: «لقد جئت مع أبي.»

رفع ريف حاجبيه مستفهماً يسألها: «أبوك؟ هل الدكتور وبستر هنا؟ هل حدث شيء لكوري؟»

قالت بشيء من الضيق: «كلا، طبعاً. وفي رأيي أنه لم تكن تلك الفتاة تعاني من أيّ شيء لا يشفيه شيء من الانضباط.»

تصلبت شفتا ريف وهو يقول: «حسناً، لا أظن أنني كنت سألتك عن رأيك، يا كلير. فهل أفهم من كلامك أن والدك يقوم بإجراء الفحص النهائي لكوري؟» وأشعره هذا بالارتياح إذ وجد فيه تفسيراً لغياب إيزوبيل عن مائدة الإفطار.

قالت كلير بمرح وهي تسكب لنفسها فنجاناً آخر من القهوة: «ولكنه انتهى من فحصها. هل تريد فنجاناً من القهوة؟»

قال دون أن يتكلف أي تهذيب: «كلا. أين إيزوبيل؟»

قالت وقد بدا عليها الرضى: «لقد رحلت. تركت القصر منذ نصف ساعة. وكان أبي قد تلقى استدعاء من بلدة دالبيغ مبكراً، فرأى أن يمرّ على كوري في طريقه.»

حدّق ريف فيها غير مصدق وهو يسألها: «هل رحلت إيزوبيل؟»

وأومأت كلير بالإيجاب، وهي ترد عليه قائلة: «لقد سمح أبي لابنتها بالخروج، وهكذا لم يعد هناك سبب لبقائها. وقد خرجتا الساعة الثامنة كما سبق وقلت. وأظن أن إيزوبيل كانت تريد الإسراع إلى بيتها لتغيّر ثيابها ومن ثم تذهب إلى عملها في العيادة.»

وأدرك ريف الفزع لهذا الشعور المذهل بخيبة الأمل الذي انتابه لدى سماعه هذا الخبر. لقد شعر بالضياع، بالغدر، بالهجران. لقد مزقته هذه المشاعر. أوه! لا بد أنها كانت تعلم برغبته في التحدث إليها هذا الصباح. لا بد أنها كانت تعلم ما عسى أن يكون شعوره عندما يعلم برحيلها. كانا بحاجة إلى أن يتحدثا معاً، على الأقل.

قالت له كلير: «تبدو عليك... الدهشة.»

تساءل عما إذا كانت ملامحه تكشف ما بداخله: «كيف؟ كيف ذهبتا؟ هل رأيتها أثناء ذلك؟»

تأملته كلير متشفية وهي تجيب: «لقد ذهبتا بالسيارة الصغيرة، الشوفان، والتي أعتقد أنك كنت أعرتها لإيزوبيل. وقد ذهب معهما لوكاس ليعود بالسيارة، ثم ليساعدها بالنسبة إلى كوري.»

وشتم ريف سراً، وبعنف، وعلم من ملامح كلير أنها أدركت شعوره تماماً. وكانت في الواقع تشعر بمتعة لاضطرابه هذا وفكر في أنه لا يستطيع أن يلومها بعد كل ما كان يتعمد مضايقتها به في الماضي.

وبعد أن استعاد توازنه ليتمكن من الخروج من الغرفة متمالكاً نفسه إلى درجة معقولة، قال وهو يتوجه نحو الباب: «فهمت.»

نادته من خلفه تسأله: «ألا تريد فطوراً؟» ومع أن شعوراً لا يقاوم بأن يفرغ عليها جام سخطه، هذا الشعور قد تملكه إلا أنه أدرك أنه هزم أمامها.

www.liilas.com

الفصل الثالث عشر

كانت إيزوبيل تغسل أطباق الافطار عندما تصاعد الطرق على الباب الخارجي.

ووقفت مترددة وقد تصاعدت خفقات قلبها، ورغم أنها تعلم أن عليها أن تفتح الباب، فقد كانت مستميتة في سبيل أن تتجنب ذلك.

كانت كوري ماتزال في الفراش. وكانت قد أخذت إليها طعام الافطار منذ نصف ساعة حيث أخبرتها أن بامكانها النهوض من الفراش إذا هي شاءت. إذ كانت قد تكهنت بأن ابنتها قد تحب أن ترتاح في غرفة الجلوس تتفرج على برامج التلفزيون بدلاً من قضاء النهار في السرير كما فعلت أمس بعد رحيلهما السريع عن القصر. ولم تكن إيزوبيل تنوي اعادة الفتاة إلى المدرسة قبل أن تذهب إلى ستراثمور وتقابل المدير. هذا إلى أن الجدة ستصل هذا النهار. ولا بد أن للسيدة جاكوبسن رأيها الخاص بالنسبة لدراسة كوري.

نظرت إيزوبيل إلى ساعتها فوجدت ان الوقت تجاوز الثامنة بقليل، فوصول الجدة في هذا الوقت غير ممكن. وحسب علمها، ليس هناك سوى شخص واحد يمكن أن يأتي مبكراً هكذا، وهو ريف. ومع أنها انتظرته طوال نهار أمس، إلا أنه خيب أملها كعادته.

وتنفست بعمق وهي تجفف يديها. حسناً، كانت تعلم أن المواجهة بينهما ستتم سواء عاجلاً أم آجلاً. ولحسن حظها

أن كوري مازالت في الفراش، إذ سيكون من الصعوبة بمكان أن تواجهه، بينما عينا ابنتها الفضوليتان تتتبعان كل حركة منهما.

لا بأس. ومشت نحو الباب بساقين غير ثابتتين. ما الذي ستفعله؟ وماذا ستقول له؟ ما الذي ستقوله للرجل الذي قلب حياتها الآمنة رأساً على عقب؟ خصوصاً وهو لم يخف عنها أن انجذابه إليها ما هو إلا شعور عابر. كان عليها أن تستجيب للتحذير، فهي كانت تعلم تماماً ما فعل فيه موت زوجته.

كانت قد حدثت نفسها بأنها في حاجة إلى وقت تفكر فيه، وتتمالك نفسها قبل أن ترى ريف مرة أخرى. وعندما كانت كلير تتصل بالسائق لارساله معها إلى بيتها، كانت تظن أنها بحاجة إلى عدة ساعات فقط تستعيد بها توازنها. ولكنها الآن، بعد أربع وعشرين ساعة، لا تدري بماذا تفسر له سبب هربها منه.

كانت لا تتوقع منه أن يقبل أي عذر. وقد أدهشها، في الواقع، ان يمنحها كل هذا الوقت، فهي تعرفه فارغ الصبر.

وانطلق صوت ابنتها يصيح بها: «ألا تريدين أن تفتحي الباب يا أماه؟» واخرجها هذا الصوت من ذهولها عن الموقف. وكانت ابنتها قد تركت سريرها ووقفت خلفها وهي ماتزال في معطفها المنزلي.

وأخذت ابنتها تنظر إليها بامعان، لتقول بعد ذلك: «ماذا جرى؟ هل كنت تبكين؟»

فأجابت الأم: «كلا.» ولكنها عندما مرت بيدها على وجنتها وجدتها مبللة غير أنها قالت: «لقد سقط شيء في

عيني. لماذا لا تذهبين إلى فراشك يا حبيبتي؟ فأياً كان القادم، فهو لا يحب أن يراك في معطفك المنزلي.»

هزّت كوري كتفيها قائلة: «ولما لا؟ ربما كان القادم هو الدكتور وبستر. لقد قال إنه سيمر لرؤيتي بعد يومين. ألا تذكرين؟»

فبدا الارتياح على وجه الأم وهي تقول: «طبعاً. لقد كنت نسيت هذا.» واسرعت نحو الباب تفتحه. وهي تتابع قائلة: «أرجو ألاّ يظن أننا تعمدنا عدم فتح الباب له وتركه ينتظر.»

قالت كوري: «ولماذا يظن ذلك؟» وأخذت تراقب أمها متأملة وهي تقول: «هل أنت خائفة منه؟» فنظرت إليها أمها باضطراب، ولكن لم يكن لديها وقت لتفكر في ما تقصده ابنتها بهذا السؤال. وما أن فتحت الباب حتى ابتدأت تعتذر بالاعتذار للدكتور وبستر قائلة: «انني آسفة...» ولكنها وقفت مذهولة وهي ترى أمامها امرأة غير صغيرة السن، متينة البنية خشنة الملامح سوداء الشعر سرعان ما اجتازت العتبة فاتحة ذراعيها نحو كوري وهي تتمتم منتقدة بعض النساء اللاتي لا يستحققن أن يكن أمهات، بينما كانت تحتضن الفتاة بين ذراعيها ضامة إياها إلى صدرها العريض.

وهتفت كوري مبتهجة: «جدتي.» أما إيزوبيل فقد خرجت تحضر حقيبة ثياب الجدة ثم تغلق الباب.

قالت الجدة لحفيدتها متجاهلة كنتها تماماً: «ما أجمل أن اراك مرة أخرى، يا حبيبتي. كم كنت قلقة لأجلك، يا كوري. ألم أقل ان امك ستندم لاحضارك إلى هذا المكان المنعزل؟»

قالت كوري ونظراتها تلتقي بنظرات أمها من فوق كتف

جدتها: «ان المكان ليس سيئاً إلى هذا الحد. كما أن سقوطي في البحيرة لم يكن بسبب خطأ من أمي.»

فاشتد احتضان الجدة لها وهي تهتف: «هل قلت انك سقطت في البحيرة؟ لقد فقدت ولدي الوحيد أولاً، والآن أسمع بأن حفيدتي كان ممكناً أن تموت غرقاً. لا عجب ان أصبحت أنا مجرد شبح للمرأة التي كنتها.»

قهقهت كوري وهي تقول: «لا تبالغي يا جدتي. عندما تتوقفين عن الاستمتاع بالطعام، سأبدأ أنا بالقلق لأجلك.»

صرخت بها إيزوبيل مؤنبة: «كوري.» وكأنما تذكرت الجدة كنتها فالتفتت إليها قائلة: «لا بأس. ان الحق معها، فإن وزني لم ينقص بل هو يزداد. فالقلق يجعلني أكثر من الطعام، وقد ازداد أكلي منذ جاءتك هذه الفكرة المجنونة بالانتقال مع حفيدتي بعيداً عن بيتها وأهلها.»

تنهدت إيزوبيل قائلة: «ولكن هذا بيت كوري الآن. ونحن الاثنتان نكوّن أهلها، وليس أنت فقط.»

ردت عليها الجدة بحدة قائلة: «كيف تستطيعين ان تقولي هذا في الوقت الذي كدت تفقدينها باهمالك.»

إرتجفت إيزوبيل قائلة: «ما كدت لأفقد كوري باهمالي، وانما وقع لها حادث. وهذا كل شيء. فهو لم يكن ذنبي.»

نفخت الجدة بأنفها قائلة: «وكيف حدث أن وقعت كوري في... في الماء؟ وأين كنت أنت؟»

أجابت إيزوبيل: «كنت في العمل.»

قالت الجدة وهي تحيط كوري بذراعها: «في العمل؟ ثم تقولين ان الذنب ليس ذنبك؟»

أجابت إيزوبيل: «نعم. فقد ظننتها في المدرسة.»

www.liilas.com

قالت الجدة: «في المدرسة...»

تدخلت كوري قائلة: «هذا صحيح يا جدتي.» وتملصت من بين ذراعي جدتها وهي تتابع باستياء: «لقد ظنت أمي انني ذهبت إلى المدرسة، ولكنني لم أفعل. انني أكره تلك المدرسة.»

فهتفت بها أمها مؤنبة: «كوري.» ولكن الجدة ألقت عليها نظرة انتصار. إذ أن الجدة، كالعادة، كانت متلهفة إلى احداث شقاق بين الأم وابنتها. وجاءت كراهية كوري الآن لمدرستها في ستراثمور تساعدها في ذلك.

وأجلست الجدة كوري على الأريكة، ثم تهالكت بجانبها وهي تقول لإيزوبيل: «كان عليك أن تبقيها معي، فقد كانت ستسعد في مدرسة اللايدي الباتور، فهي التي احبتني، وهي التي كانت ستحب كوري. أليس كذلك يا حبيبتي؟»

ولم يمنع الجدال من أن يتحول إلى شجار، سوى قرع على الباب. وانتهزت إيزوبيل هذه الفرصة لتستكمل دفاعاتها.

واستأذنت ثم مشت نحو الباب تفتحه. كان القادم هو ريف. ووقفت لحظة لا تستطيع النطق وهي تحدق فيه. فقد كانت متأكدة من أن القادم هو الدكتور وبستر هذه المرة. وكان ريف هو آخر شخص تتمنى رؤيته. وتصورت ما ستفكر الجدة به عندما تخبرها كوري عن شخصيته.

«مرحباً.» وكانت هذه التحية من ريف لها، أليفة إلى حد مزعج. وقاومت مشاعرها التي كانت تدفعها إلى أن تطلب منه النصح والمشورة، وكان الدافع لذلك قوياً رغم خوفها، ورغم اشمئزازها من نفسها. ولكنه بدا أمامها، إزاء مشاعرها المتضاربة هذه، بدا جديراً بالثقة إلى حد بالغ.

على أنها حدثت نفسها بعنف أن هذا غير صحيح. فمهما كان السبب في حضوره إلى هنا، فهو ليس لتقديم أية مساعدة لها. ربما كان الفضول، أو ربما يريد أن يخفف مما يثقل ضميره بمحاولة زائفة.

وأخيراً قالت وهي تعلم أن كوري وجدتها تستمعان إلى كل كلمة تقال: «مرحباً. هل تريد شيئاً؟»

نظر إليها برهة، ثم قال: «لقد جئت لرؤيتك.»

قالت وهي تنظر خلفها بشيء من التوجس: «أحقاً؟ وما السبب؟»

قال وقد بدا نفاد الصبر في صوته: «ألا تعرفين السبب؟ هل يمكنني الدخول؟» وتمنت هي أن لا ينطق بشيء يكشف أمرهما.

وسمعت ابنتها تقول لجدتها: «انه ريف وهو الايرل.» وكان في صوتها شيء من الفخر ثم رفعت صوتها تخاطب أمها: «اطلبي إليه الدخول يا أماه. إنني أريده أن يتعرف إلى جدتي.»

وكانت إيزوبيل تعلم أنها لا تستطيع معارضة ابنتها، ثم إنه مالك هذا البيت فهل بإمكانها، قانونياً، أن تمنعه من الدخول؟ وقالت: «تفضل. إن والدة ادوارد هنا.»

انبسطت أسارير وجهه، ولعله، كما تساءلت إيزوبيل، قد أدرك سبب ترددها في البداية.

وعندما عادت إلى غرفة الجلوس، كانت كوري قد قامت بواجب التعارف، وتمنت إيزوبيل لو تأخذ معطفها وحقيبة يدها وتهرب خارجة إلى عملها.

قالت له الجدة: «أظنّ أنك الشخص الذي عليّ ان أشكره لانقاذه حياة حفيدتي؟»

www.liilas.com

ابتسم ريف قائلاً: «لقد حدث هذا مصادفة. هل وصلت من سفرك الليلة الماضية؟»

أجابت الجدة: «كلا، بل هذا الصباح.» وكانت عيناها تتنقلان بين الايرل وكنتها وهي تتابع قائلة: «حالما سمعت بالحادث الذي جرى لكوري، أخذت أول قطار إلى غلاسكو.»

قالت كوري: «لقد حملني ريف طول الطريق إلى القصر. ثم أعار أمي سيارة لكي يكون بإمكانها القدوم لزيارتي.»

قالت الجدة بلهجة ذات معنى: «أحقاً؟ ولكن، أليس في دعوتك له باسمه ريف شيئاً من قلة الاحترام، يا كوري؟ إنني متأكدة من ان الايرل لم يعطك الإذن بأن تخاطبيه باسمه ريف.»

قالت كوري: «هذا ما تخاطبه به أمي. وهو لا يمانع. أليس كذلك يا ريف؟»

أجاب: «كلا. والآن كيف حالك يا كوري؟ من الواضح أن ذلك المغطس في البحيرة لم يؤذك بشيء.»

وضحكت كوري مسرورة بأن تكون موضع الاهتمام ولكن الجدة لم تكن مسرورة بلا مبالاته بهذا الأمر، فقالت: «اظنك تعلم أن ذلك المغطس كان بإمكانه أن يقتلها لو انك لم تعثر عليها. اما إيزوبيل فلم تكن من الحكمة في شيء، إذ لم تهتم بالتأكد من أنها وصلت إلى المدرسة فعلاً.»

وتوهج وجه إيزوبيل، ولكن ريف سارع إلى التدخل لنجدتها قائلاً: «لا أظن أن مدير المدرسة سيعجبه أن يتصل به كل صباح آباء خمسمئة تلميذ للإطمئنان إلى ان اولادهم قد وصلوا إلى صفوفهم.»

توهج وجه الجدة هي الأخرى بعد ان انفجرت كوري

ضاحكة، وقالت: «إنني لا اقصد هذا، ولكن حفيدتي هي غريبة هنا. وهي، كما سبق وقالت، لا تحب المدرسة، فكان على إيزوبيل ان تتأكد من أن كوري صعدت إلى حافلة المدرسة، على الأقل.»

قال ريف بهدوء: «ان كوري ليست طفلة.» وأدركت إيزوبيل أن ليس بإمكانها ان تترك له أمر الدفاع عنها إلى ما لا نهاية، فتقدمت تقول: «حسناً. أياً كان الملوم في ذلك، فإن كوري هي الآن بخير، وهذا هو المهم. أليس كذلك؟»

تنفست الجدة بعمق وهي تجيبها قائلة: «أحقاً؟ لا أدري أي عذر ستتقدمين به إذا ما حدث هذا مرة أخرى.»

شهقت إيزوبيل قائلة: «ولكن هذا لن يحدث مرة أخرى.»

قالت الجدة وهي تقف على قدميها: «لا، هذا لن يحدث مرة أخرى فعلاً، لأنني سأصحب معي كوري عندما اعود إلى لندن، إلى بلدها. وهي ستدخل اللايدي اليانور. واذا أصريت أنت على البقاء هنا، فهذا شأنك، وليس على كوري ان تتحمل عاقبة ذلك.»

اندفعت إيزوبيل تقول: «والآن، اسمعي...» ولكن أسكتها قول ريف: «أظن هذه فكرة جيدة جداً.»

وراعها أن يزيد الطين بلّة باعطاء رأيه هذا. لقد أثارها أن يوافق الجدة على رغبتها الظالمة تلك.

قالت له بحدة: «ماذا قلت من فضلك؟»

أجاب: «قلت إن من الأفضل أن تدعيها تذهب.»

قالت: «نعم، لقد سمعت قولك هذا.»

قال بدهشة: «أوه، إنني آسف. ظننت انك...»

ردت عليه بعنف: «أريد أن أعلم ما الذي أعطاك الحق في

www.liilas.com

الادلاء برأيك؟ إن كوري هي إبنتي أنا. وأنا التي أقرر أين يجب أن تعيش ومع من.»

قال: «ولكنني فقط ظننت...»

قاطعته: «لا أريد أن أعلم ما الذي ظننته.»

وحدقت فيه وهي تقاوم رغبتها في صفع وجهه، كيف تجرأ على أن يفعل ذلك؟ كيف تجرأ على أن يقول ما معناه ان كوري سيكون حالها أفضل من دونها؟

ولكنها ما لبثت أن أدركت أن شجارها هذا قد لفت إليهما الانتباه. لقد كانت هذه الالفة بينهما، وهو المفروض أن يعمل بشكل واحترام مختلفين، كانت شيئاً غير عادي. ما الذي كانت الجدة ستظنه إذن لو أنها كانت صفعته على وجهه؟ خصوصاً وقد سبق ولاحظت أن الوضع بينهما غير طبيعي، إن هذا كان سيؤكد شكوكها حتماً.

وهنا قالت كوري: «إذا كان هناك من يهتم بشعوري، فأنا أظن أن هذه فكرة حسنة فعلاً. إنني لا أمانع في العودة إلى لندن يا أمي. إنك لا تحتاجينني هنا، كما أن جدتي تعيش وحدها.»

وفكرت إيزوبيل بصمت في أنها هي أيضاً وحدها. ولكنها خافت ان جهرت بقولها هذا أن يدفع ذلك ابنتها إلى أن تقول شيئاً كريهاً آخر يتناولهما هي وريف، ذلك أن آخر ما توده هو أن تعتقد حماتها ان بينها وبين ريف علاقة. فهي عند ذاك، لن تسكت ابداً. ما الذي يسمون به امرأة بتلك الصفة؟ أم غير صالحة؟ نعم، هذا ما سيكون. وهي تعرف جيداً أن حماتها من الممكن أن ترفع قضية أمام المحكمة، محتجة بهذا، إذا فكرت، يوماً في أن تأخذ لنفسها الوصاية على حفيدتها.

قالت وهي ترمق ريف بنظرة كادت تجمده لفرط عنفها: «على كل حال، سنتحدث في ذلك في ما بعد. أما الآن فعلي ان اذهب إلى العمل. لقد تأخرت.»

قال ريف على الفور: «سأوصلك بنفسي.» ولم تستطع أن تجهر بكراهيتها للصعود إلى سيارته بعد ما بدر منه تجاهها.

قالت: «كما تشاء.» وتركتهم متجهة نحو المطبخ حيث وقفت تنظر حولها لا تدري ما الذي تبحث عنه، وإذا بصوت ابنتها ينطلق من خلفها يقول: «سأصنع أنا الإفطار لجدتي.» ولكن إيزوبيل لم تستطع مواجهة ابنتها بل كل ما أمكنها قوله: «انك تعلمين مواضع الأشياء.» ثم اختطفت معطفها وحقيبتها وعادت إلى غرفة الجلوس، وبعد أن أخذت نفساً عميقاً، قالت لحماتها: «سأراك في ما بعد، وكوري ستعتني بك.»

كان الهواء خارجاً شديد البرودة. وبما أنها، وريف، قد اصبحا الآن بعيدين عن مسامع الجدة، فإن إيزوبيل لم تجد ضرورة لإخفاء شعورها، فقالت وهي تحاول رفع ياقة معطفها حول وجهها: «إنني سأذهب سيراً على اقدامي.»

«كلا. لن تفعلي هذا. فأنا أريد ان اتحدث إليك بشيء لا أريد إرجاءه إلى وقت آخر.»

بان العداء في نظراتها وهي تقول: «ألا تظن أن في ما سبق وقلته الكفاية؟»

أجاب عابساً: «ليس تماماً.» وقادها نحو سيارته. وعندما جلس بجانبها ابتعدت عنه إلى آخر المقعد، ولكنه لم يعلق بشيء. ومن ثم انطلق بالسيارة حيث تجاوزت العيادة.

www.liilas.com

قالت له وهي تحاول فتح الباب فوجدته مقفلاً: «أوقف السيارة حالاً.»

قال وقد فرغ صبره: «اهدإي. إنني لن اخطفك وإنما ما أريد قوله لك يحسن ان يكون على انفراد وليس بين مرضى العيادة.»

نظرت إليه بازدراء رغم أنها كانت على وشك البكاء. ألا يكفي أنه قد سلبها سكينة النفس، حتى ابتدأ الآن بتخريب علاقتها بابنتها؟

قالت بشيء من العصبية: «لا بأس.» وأوقف السيارة جانباً وهو يقول: «سنتحدث هنا. إنني أرى من الأفضل أن نتحدث بشأن كوري أولاً. لقد جننت لأنني وافقت على أن تذهب لتعيش مع جدتها.»

أجابت بحدة: «طبعاً. كيف تجرأت على أن تتدخل بيني وبين إبنتي؟ إنك لا تعلم عنا شيئاً.»

أجاب: «ولكنني أعلم أن كوري لا تشعر بالاستقرار هنا. اعلم أنها غير سعيدة في المدرسة، وأن غيابها عنها أكثر من حضورها.»

قالت: «وكيف علمت ذلك؟»

هز كتفيه قائلاً: «وهل هذا مهم؟»

أجابت: «نعم. هل كنت تتجسس علينا؟»

قال وهو يتخلل شعره بأصابعه: «آه، يا إيزوبيل. إذا كان لا بد من أن تعلمي، فأنا أحد رؤساء المدرسة في ستراثمور، ومن غير الصعب ان يعرف الواحد منا سلوك أحد التلامذة.»

قالت: «وأظن المدير هو أحد اصدقائك؟»

قال: «كلا. ليس بشكل خاص، فهو يبدو لي على شيء من الغرور. ولكن هذا لا يعني أنني اتعاطف مع كوري في سلوكها ذاك.»

قالت متهكمة: «كلا طبعاً.»

قال: «كفى تصرفاً وكأنني عدوك، يا إيزوبيل. إنني لست كذلك.»

قالت: «لست بحاجة إلى اصدقاء مثلك.»

قال: «إنني أريد فقط أن اساعدك، وأنا لا أظن في إرغام كوري على البقاء في مدرسة ستراثمور ضد رغبتها، ما يشكل حلاً للمشكلة. دعيها تذهب. دعيها تعيش مع جدتها فترة. ومما رأيته من تلك السيدة المسنّة،لا أظن كوري ستمكث معها طويلاً.»

حدقت فيه وقد اغرورقت الدموع في عينيها، وهي تجيبه قائلة: «إن ما تظنه لا يهمني، أتمنى لو لم اعرفك قط. فقط، ابتعد عن حياتي من الآن فصاعداً.»

تنهد قائلاً: «يجب أن تعلمي أن هذا سبب وجودي هنا، فلا تدعي كوري تقف بيننا، انك لا تصدقين أنني بعد تلك الليلة، لم أكن أريد أن أراك مرة أخرى.»

نظرت إليه باشمئزاز وهي تقول: «كنت عند ذاك، سأعلم أن هذا بالضبط، ما كنت تريده. فدعني وحدي الآن. إنني لا أريد أن أتحدث إليك بعد الآن مطلقاً.»

www.liilas.com

الفصل الرابع عشر

أنهت إيزوبيل عملها يوم الأربعاء في وقت الغداء. إذ لكونها تعمل غالباً صباح السبت، فإن الدكتور وبستر يمنحها نصف نهار أثناء الأسبوع. وكان هذا الفراغ يساعدها فيما لو أرادت الذهاب إلى ستراثمور، أو أن تقوم بأعمالها المنزلية.

لقد تملكها في البداية الشعور بالوحدة في بيتها ورغم إقناعها لنفسها بأنه لو كانت كوري ما تزال معها، فإنها في هذا الوقت ستكون في مدرستها في ستراثمور، ما يعني انها ستكون بمفردها على كل حال، رغم ذلك فقد تسللت الوحشة إلى نفسها. إنها لا تستطيع أن تنسى أن ابنتها هي الآن على بعد مئات الأميال عنها، وأنه قد تمضي أسابيع أو شهور قبل أن تتمكن من رؤيتها مرة أخرى، هذا إذا لم تغيّر، رأيها وتعود إلى لندن.

وكانت هذه الفكرة تبعث الفزع في نفسها فهي تعلم أن هذا ما تريده حماتها والذي هو لمصلحتها في النهاية. لقد كانت متأكدة من أن إيزوبيل، سواء عاجلاً أم آجلاً، ستتخلى عن مشروعها الجنوني هذا، وتعود إلى لندن. إلى البيت في شارع سانت جايمس وود، ولحماية حماتها الإجبارية لهما.

وكان هذا ما ستفعل. إذ بالرغم مما تريده حقاً، فقد كان

حبها لإبنتها يمنعها من أن تفارقها. ولقد صممت فعلاً على تقديم استقالتها.

أما ما كان يحيّرها، فهو سماحها لابنتها بأن تسافر مع جدتها. لقد وافقت بسرعة على ذلك. ولكن هذا ما كانت كوري تريده... ما كانت حماتها تريده... وبعد تدخل ريف، فإن الميزان قد مال ضد مصلحتها.

هذا إلى أنه لم يكن من المعقول إعادة كوري إلى المدرسة في ستراثمور. ذلك أن اكتشافها بأن ابنتها كانت تمضي من الوقت خارج المدرسة أكثر مما تمضيه في داخلها، قد ملأ نفسها يأساً. لم يكن ثمة طريقة تجعلها تستطيع أخذ كوري إلى المدرسة. ولا أن تتأكد من بقائها فيها إذا هي أخذتها إليها. ولا أحد يعلم كم هي الأخطار التي من الممكن أن تتعرض لها فتاة مراهقة تهيم وحدها في الطرقات والبراري، والذي كان السقوط في البحيرة ليس أسوأها. كيف ستستطيع مواجهة نفسها لو أن كوري اختطفت أو اغتصبت، أو ربما ما هو أسوأ؟

بالنسبة لكل هذا، بدا لها دخول ابنتها إلى مدرسة لايدي اليانور حلاً مناسباً، على الأقل إلى أن يكون بإمكانها أن توفر مبلغاً من المال يكفي لإيجاد حل أفضل. وكان هذا سبب قبولها بما تريده حماتها، فتركتها تصحب كوري معها إلى لندن، كان عليها أن تقبل ذلك، لأن بإمكان الجدة أن تقوم حالياً بأكثر مما تستطيع هي أن تقوم به.

ولم تكن تريد أن تعترف بذلك لأي إنسان، خصوصاً لريف ليندسي. وكانت تفكر في ذلك وهي تترك العيادة ظهر

ذلك الأربعاء، وبعد مرور شهر على تلك الأحداث التي سبقت رحيل ابنتها. إنها لا تستطيع أن تنسى أنه كان وافق الجدة على رأيها. ورغم علمه كم تعني ابنتها بالنسبة إليها، فقد بقي يشجع حماتها على ذلك.

إنه، طبعاً لم يصدقها حين قالت إنها لا تريد أن تراه بعد ذلك مطلقاً. فقد بقي يتردد عليها بعد سفر كوري والجدة، ليحملها على أن تغيّر رأيها. جرّب كل الوسائل التي يعرفها من الإقناع الهادىء الصابر، إلى الغضب، ولكن دون جدوى. لقد رفضت إيزوبيل الاستماع إليه. ولكنه الآن فقط وقد ابتدأ الألم لرحيل كوري يخف، ابتدأت تشعر بمقدار خسارتها له.

ولكنها ما لبثت أن أخذت تعنف نفسها، بأن هذه سخافة. لم تشأ أن تعيد ذكرى ما حدث بينها وبين ريف، فهذا شيء تفضل أن يطويه النسيان. والتفكير فيه يوقظ جرحاً لن يشفى بعد ذلك أبداً.

ربما لو بقي يلاحقها، لتغيّر الأمر، ولكن التعب من عنادها البالغ قد أنهكه. وقد مرت أسابيع الآن منذ رأته لآخر مرة. وفكرت في أنه قد يكون مسافراً، ولكن لم تكن هناك طريقة تسأل بها آل وبستر عنه دون أن تثير نحوها الشبهات، هذا إلى أنها كما أخذت تحدّث نفسها لا شأن لها بذلك. فهما لا يدين كل منهما للآخر بشيء. وليس هناك ما يجعلها تقلق بشأنه.

ولكن، نعم، كان هناك ما يسبب لها القلق، وكان هذا يزداد يوماً بعد يوم. القلق ليس على ريف كما أكدت لنفسها. فهو لا يحتاج إلى من يقلق عليه، ولكن بشأن

الطريقة التي عاملته بها، وكيف أنها وجهت إليه اللوم على شيء لم يكن ذنبه.

وكان هذا هو سبب شعورها بتلك الوحشة التي تكتنفها في كل مرة كانت تفكر فيه، وشعورها بتلك الكآبة كلما فتحت عينيها في الصباح، لم يكن السبب هو افتقادها لكوري فقط، فقد كانت تفتقد ريف أيضاً. ولأنها، بلومها له لخيبتها هي قد فقدت صداقته كذلك.

وصلت إلى بيتها أخيراً، وكان الجو بارداً وتكهنت بانهمار المطر هذه الليلة، فقد كان البرد في أعالي الجبال هذه أشد منه في لندن.

ولم يكن الهرّ في مكانه المعتاد على عتبة النافذة عندما وصلت إلى الباب الخلفي. وأدهشها ألاّ يكون في انتظار كوب الحليب كالعادة، وتمنت أن تجده بخير، إذ أنها لا تعرف ماذا ستفعل إذا فقدته هو أيضاً...

وأخرجت المفتاح من حقيبتها، وقبل أن تضعه في القفل، فتح الباب. وتملكتها الدهشة وهي ترى كوري تقف أمامها تنظر إليها بعصبية، بينما الهر يتمسح بساقيها وقد قوّس ظهره.

قالت كوري بصوت أبح وكأنها تعاني من الزكام أو ربما كانت تبكي: «مرحباً يا أمي. أراهن على أنك لم تكوني تتوقعين رؤيتي.»

وقفت إيزوبيل تنظر إليها وتحاول أن تتمالك شتات ذهنها، وهي تقول: «كلا. كلا، لم أتوقع ذلك.» وتقدمت إلى الداخل بحركة آلية، ثم استندت إلى الباب وهي تسألها: «هل جدتك معك؟ لماذا لم تعلماني بقدومكما؟»

www.liilas.com

وضعت كوري يديها في جيبي بنطالها، ثم نظرت إلى أمها بشوق وهي تقول: «لم أستطع. ما أجمل أن أراك مرة أخرى يا أمي. صدقيني. هل اشتقت إليّ؟»

كانت مثل هذه الأسئلة هي من عادة كوري، كما فكرت إيزوبيل باكتئاب وهي تمرّ من جانب ابنتها إلى غرفة الجلوس لتسألها بعد ذلك: «إين جدتك؟ وإين أمضيت هذه الليلة، ولماذا لم تتصلي بي؟»

قالت كوري: «كلا، إن جدتي ليست معي.»

هتفت إيزوبيل بذعر: «ماذا؟ ما الذي حدث؟ هل هي مريضة؟» كانت أسئلتها تتواتر بسرعة وكأنها وجدت تفسيراً لقدوم كوري المفاجيء. وتابعت تقول: «آه. لم يحدث لها شيء، أليس كذلك؟ أعلم أنني كنت أتذمر منها أحياناً ولكنني لا أريد أن يحدث لها أي ضرر.»

سارعت كوري تقول: «كلا. كلا، يا أمي. لم يحدث شيء لها. كما أنها لا تعلم أنني هنا.»

ترنحت إيزوبيل، وتمسكت بمسند كرسي تحمي نفسها من السقوط وهي تقول بهلع: «هذا مستحيل. إنك تمزحين دون شك.»

قالت كوري وهي تشهق: «بل هذا صحيح.»

وتكهنت إيزوبيل بأن ابنتها لا بد كانت تبكي خوفاً من تأثير هذا الخبر على أمها. وتابعت كوري تقول: «لقد... لقد جئت بالطائرة إلى غلاسكو هذا الصباح... ثم...» وترددت ثم تابعت تقول: «ثم اتصلت بريف من فورت ويليام فجاء وأحضرني إلى هنا.»

حدّقت إيزوبيل بها. إنها إذن قد اتصلت بريف! ولم

تستطع ساقاها حملها، فجلست على ذراع الكرسي. مع كل هذه الأسابيع التي لم تره فيها، تأتي كوري فتتصل به تطلب إليه توصيلها!

وأخيراً سألتها بصوت خافت: «ومن أين دفعت ثمن تذكرة الطائرة؟ وأين تظنك جدتك؟»

شهقت كوري مرة أخرى قائلة: «في المدرسة. أوه ما أسوأ الوضع هناك يا أمي، إنه أسوأ كثيراً من ستراثمور. كانت جدتي تأخذني كل صباح بنفسها إلى المدرسة، وتعود لأخذي بعد الظهر. إنها لم تكن تسمح لي بالخروج مطلقاً، خصوصاً وحدي. كما أن زميلاتي في تلك المدرسة غاية في الغباء.»

وحاولت إيزوبيل أن لا تدع غضبها من ابنتها يتغلب عليها. لماذا لم تلحظ قط من قبل مبلغ أنانية ابنتها؟ لماذا لم تدرك قط أن كوري لا تفكر إلا في نفسها؟

وعادت تقول لها: «ومن أين جلبت ثمن تذكرة الطائرة؟»

قالت: «استعملت بطاقة حساب جدتي في المصرف...»

قاطعتها أمها برعب: «استعملت ماذا؟»

قالت تدافع عن نفسها: «لقد كانت قالت لي أن بإمكاني أن أستعمله إذا أردت شراء أشرطة تسجيلات.»

ردت عليها أمها: «إن أشرطة التسجيل ليست تذاكر طائرة. كم كان ثمن التذكرة بالضبط؟» وأخذت تحسب في ذهنها مقدار حسابها هي في المصرف.

وأخبرتها كوري بسرعة متابعة الاعتذار عما فعلت: «ظننتك ستكونين مسرورة لرؤيتي. لقد اشتقت إليك يا أمي.

www.liilas.com

صدقيني.» ونظرت حولها وهي تقول: «وهذا البيت... إنه بيتي...»

هتفت بها أمها: «كوري...»

قاطعتها بقولها: «كلا، دعيني أنهي كلامي يا أمي. إنني أعني تماماً ما أقول. أتعلمين أن جدتي كانت تجبرني على تنظيف الحمام بعد كل مرة أستعمله؟ وإذا أنا تركت جوربا على أرض غرفتي، يكاد يغمى عليها.»

قالت الأم: «انك تبالغين.»

قالت الإبنة: «كلا، أبداً. أظن كل المسنين كذلك يهتمون بالأمور التي لا معنى لها. إنني لا أريد العودة إليها ولا تهمني نقودها. أريد أن أعيش معك.»

وقفت إيزوبيل ثم استدارت مبتعدة، لقد شعرت في أعماقها، بتعاطف مع ابنتها، ذلك أنها تعلم جيداً مبلغ سخط حماتها إذا لم تحصل على ما تريد.

طبعاً، لم تكن كوري على حق في ما قامت به. وكان أول ما على إيزوبيل أن تقوم به، هو الاتصال بحماتها لتخبرها بمكان كوري. ومن حسن الحظ أنها كانت تظنها في المدرسة كما قالت كوري.

وفكرت إيزوبيل في أنه ربما كان أفضل ما عليها أن تفعل، هو أن تتحدث إلى ابنتها بهدوء، ثم تعيدها في القطار التالي. فهذا ما تستحقه كوري على الأقل لكي تعلم أن أمها ليست من الضعف كما تظن.

ولكنها كانت تعلم في أعماقها، أنه لن يكون في إمكانها إعادة كوري إلى لندن. ذلك لأنها كانت تحبها أكثر من أي إنسان في العالم، ما عدا ريف. وحدثتها نفسها في أن عودة

ابنتها جعلتها تعلم أن شعورها نحوه لن يتلاشى. وتذكرت بألم أنه كان سبق وقال لها إن ابنتها ستعود. وتنهدت، لو أنها كانت صدقته حينذاك.

وعادت تسأل ابنتها: «وكيف وصلت إلى فورت ويليام؟»

أجابت كوري بسرعة وقد لاحظت التخاذل في لهجة أمها: «ركوباً بالباص. لقد كان عندي بعض النقود، مصروف الجيب. لقد أمضيت الليل في منزل إحدى رفيقات الدراسة واسمها فيرجينيا هارمون، وهي تسكن قرب المطار. ومن ثم أخذت أول طائرة في الصباح الباكر إلى غلاسكو. وبعد ذلك أنت تعرفين ما حدث.»

قالت الأم: «أظنك قلت إن جدتك لم تكن تدعك تغيبين عن بصرها.»

أجابت: «ولكن جدتي تعرف صديقتي فيرجينيا لأن أمها كانت صديقة جدتي في المدرسة. فلم تظن أبداً أن ثمة مشكلة في الرقاد هذه الليلة عندهم في المنزل.»

هزّت الأم رأسها قائلة: «وهكذا، فأنت لم تخدعي جدتك فقط، بل خدعت آل هارمون كذلك. حسناً سوف نتحدث في ذلك في ما بعد. والآن، متى وصلت إلى فورت ويليام؟»

أجابت: «حوالي الساعة الحادية عشرة.»

سألتها الأم: «ولماذا اتصلت بريف؟ لماذا لم تأخذي سيارة أجرة إلى إنفركالدي مباشرة؟»

قالت كوري: «لأنني... لأنني كنت أعلم أنه سيجن جنونك.»

ازدردت إيزوبيل ريقها، ثم قالت: «ماذا قلت؟»

www.liilas.com

أجابت: «قلت انه سيجن جنونك، ليس لأنني رجعت، بل للطريقة التي رجعت بها.»

«آه، فهمت.»

قالت كوري وهي تنظر إلى أمها من تحت أهدابها: «أحقاً؟ كان عليّ أن أتصرف بهذا الشكل يا أمي. فلو كنت أخبرت جدتي بمشاعري تلك، لكانت أخذت تقنعني بأنني مخطئة. ومن ثم ما كانت لتعطيني أجرة السفر أبداً. كانت تريدني أن أبقى معها على الدوام يا أمي.»

وغصت إيزوبيل بريقها، ثم قالت: «إنني ما زلت لا أفهم لماذا أشركت ريف في الأمر.»

أجابت: «لأنني أردت أن أتحدث إليه. ظننت أنه قد يتحدث إليك بشأني، فقد كان مهتماً بك قبل أن أسافر... فظننت أنه قد...»

انفجرت إيزوبيل بها قبل أن تتابع هذه كلامها، قائلة: «ماذا تعنين؟ ماذا تعنين بقولك إنه كان مهتماً بي؟»

نظرت إليها كوري بضجر قائلة: «ولكنه كان مهتماً بك، أليس كذلك؟ آه يا أمي، إنني لست طفلة فأنا كنت ألاحظ نظراته إليك حين كان يأتي إلى بيتنا هذا. وتلك الليلة التي أصبت بها بذلك الحادث، لم أكن فاقدة الوعي، فرأيته كيف عاملك برقة وحنان. لا يمكنك أن تدّعي أنني إنما كنت أتخيل ذلك. لقد اعترف ريف بأنه شعر بذلك حقاً.»

فغرت إيزوبيل فاها لحظة، ثم قالت: «ماذا قال ريف؟»

تمتمت كوري وهي تنظر إلى الأرض: «لقد اعترف بذلك،

ولكنه رفض الحضور معي والتحدث إليك، قائلاً إنك لن تستمعي إلى أيّ شيء يقوله.»

رفعت إيزوبيل يدها إلى رأسها بهلع وهي تقول: «كوري، هل... هل حاولت ابتزاز ريف لكي يساعدك، وذلك بتهديده بإبلاغ شخص ما عما تظنين بيننا من علاقة؟»

صرخت كوري بذعر قائلة: «كلا. أبداً.»

قالت الأم: «ولكنك ألقيت عليه أسئلة شخصية.»

أجابت: «لقد تطرق الحديث إلى ذلك فقط. صدقيني يا أمي. من تظنينني؟ هل لأنك نسيت فضل ريف عليّ، يجب عليّ أن أنسى ذلك أنا أيضاً؟»

ردت عليها إيزوبيل: «إنني لم أنس ذلك.» وسكتت برهة شاعرة بالعجز ثم قالت بصوت خافت: «سأضع كوباً من الشاي، ثم تحدثينني بعد ذلك بالضبط عما قلته للإيرل. وأنا أعني بالضبط يا كوري، وليس ما تظنين أنني أريد سماعه.»

قالت كوري بعد ذلك بفترة، وهي تجلس وأمها على مائدة المطبخ تتناولان الشاي: «حسناً، لقد طلبت رقم هاتفه من الاستعلامات. ولكنني لم أستطع التحدث إلى ريف مباشرة، إلى أن أجابني شقيقه فأخبرته من أنا. أظنه كان سيقطع المخابرة لولا أن ريف اشتبه بالأمر، فأخذ السماعة منه. لقد كانا يعملان معاً في المكتبة كما أخبرني في ما بعد.»

قالت إيزوبيل محاولة ألاّ تظهر لهفتها: «إذن، فقد تحدثت مع ريف. وماذا قال لك؟»

أجابت كوري دون اهتمام: «قال إنه سيأتي إليّ

www.liilas.com

لإحضاري. وماذا تتوقعين منه أن يقول غير هذا؟»

قالت إيزوبيل: «كان بإمكانه أن يرفض.»

هزّت كوري كتفيها قائلة: «ليست هذه طباع ريف.»

عادت إيزوبيل إلى الموضوع قائلة: «حسناً، وبعد أن ذهب إلى فورت ويليام؟»

قالت كوري: «كنت أنتظره خارج المحطة. جاء في سيارته المرسيدس الكبيرة... لقد توقعت أن يأتي بالرانج روفر ولكنه لم يفعل.»

قالت إيزوبيل: «إن نوع السيارة لا يهمني. ماذا حدث عند ذاك؟ هل أحضرك إلى هنا مباشرة؟»

أجابت كوري: «حسناً. لقد ذهبنا، قبل ذلك إلى مقهى حيث تناولنا القهوة وبعض السندويتشات.» وغطت حاجبيها وهي تتابع قائلة: «كان يبدو متعباً وأظنه كان مسروراً لفترة الراحة تلك. وذلك عندما أخبرني بألاّ أتوقع منه أن يكون له أيّ تأثير عليك بشأني. قال حتى إنك لم تعودي تتكلمين معه.»

قالت إيزوبيل: «كوري.»

أجابت كوري: «حسناً، أليس هذا صحيحاً؟»

احمرّ وجه إيزوبيل وهي تقول: «كلا.»

قالت كوري وهي تنظر إليها بدهاء: «حسناً، هذا ما قاله هو. لقد قال إنك تلومينه لما قاله لجدتي بشأن رحيلي معها، وقال إنه حاول التحدث إليك، ولكنك رفضت الاستماع إليه.»

لقد كان آخر ما توقعت هو أن يخبر ريف كوري أنهما لا يتقابلان، ولكنها لم تكن تعلم بأن ابنتها ستستعين به

ليتحدث إليها بشأنها. ماذا سيظن بها؟ ماذا سيظن بهما هما الاثنتين؟

ولم تخدع الإبنة بمراوغة أمها، بل سألتها: «هل هذا صحيح؟ أوه! إذا كان هذا صحيحاً أظن عليك أن تعتذري إليه. ذلك أنني كنت كتبت لجدتي منذ أسابيع أسألها إن كان بإمكاني القدوم إليها للعيش معها.» ونظرت إلى أمها بحذر وهي تتابع قائلة: «أعلم أنه ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك، يا أمي وأنا آسفة. لقد فكرت فقط في أنه لو طلبت جدتي منك هذا، ربما كنت غيّرت رأيك في البقاء هنا.»

www.liilas.com

الفصل الخامس عشر

«ريف، لقد ترددت في أن أكلمك وأنت في هذا المزاج، ولكن هل لك في أن تخبرني لماذا ذهبت إلى فورت ويليام هذا الصباح؟»

رفع ريف رأسه ينظر إلى أمه بضجر. كانت الكونتيسة قد أقبلت إليه في المكتبة، ومع أنه كان يعلم أن عليه أن يقف احتراماً لها، إلا أنه بقي جالساً منحنياً على مكتبه.

سألها وقد تأكد من أن أخاه لم يضيّع وقته في إخبار أمهما عن اتصال كوري به: «ألم يخبرك كولين؟ لقد ذهبت لإحضار ابنة السيدة جاكوبسن.»

توترت شفتا الأم وهي تقول: «ثم عدت بها إلى إنفركالدي؟ يدهشني أن عدت بعد ذلك إلى القصر. ألم تشأ السيدة جاكوبسن أن تكافئك على هذا؟» فأظلم وجه ريف، ولما انتبهت هي إلى أنها ذهبت بعيداً هذه المرة، اسرعت تقول: «حسناً، لقد كنت تذهب إليها، أليس كذلك؟ لقد قال كولين أنك ذهبت إلى بيتها عدة مرات.»

ضرب ريف بيده على المكتب وانتصب واقفاً، فتراجعت إلى الخلف بعصبية.

وقال: «لا شيء يغيب عن عينيك، أليس كذلك يا أمي؟ إنني على وشك الاعتقاد بأنك تأسفين لأنني لم أعد ألوم نفسي لما حدث لسارة.»

قالت: «لا تكن سخيفاً.»

قال مقطباً حاجبيه: «وهل هذه سخافة؟ إنني جديٌّ في تصرفاتي وأنت تعرفين هذا. ومع ذلك لا تستطيعين مقاومة التدخل في شؤوني.»

قالت: «لا أحب أن تستعمل معي هذه اللهجة، يا ريف، ولا أظنك تلومني إذا راودني الشك في أسباب هذا الجد الذي تملكك. فهو ليس طبيعياً، أليس كذلك؟ فأنت لم تعد تترك القصر باستثناء تلك الرحلة إلى فورت ويليام.»

قال عابساً: «إنني أفعل ما يروق لي.»

قالت: «نعم، كل شيء ما عدا القيام بزيارة أي من المستأجرين.»

قال: «لقد وظفت وكيلاً عني للتعامل بهذه الأمور بإسمي. أما أنت فلديك كولين يؤدي لك ما تريدينه من خدمات. أما الآن فأنا مشغول بأموري الخاصة إذا لم يكن لديك مانع.»

قالت: «إنها تلك المرأة، أليس كذلك؟ أعني السيدة جاكوبسن، آه، إيزوبيل إذا شئت. إنها سبب وحدتك الآن. لماذا تخاف من الذهاب لمقابلتها؟ وما مكانتها بالنسبة إليك؟»

قال دون أن ينظر إليها: «انك لن تصدقيني.»

قالت: «جربني.»

قال وهو ينظر إليها: «لا بأس. أظن أنني واقع في حبها.»

شهقت قائلة: «إنك غير جاد في قولك؟»

قال: «قلت لك إنك لن تصدقيني.»

قالت: «ولكن... ولكنك تحب سارة!»

قال: «إن سارة ميتة.»

قالت: «حسناً، ولكنك كنت تحب سارة.»

قال: «لقد كنت اعتقد ذلك فعلاً، ولكنه لم يكن حباً.»

شهقت مرة أخرى وهي تقول: «كان حباً بالطبع.»

تنهد ريف قائلاً: «كلا. إنني أعرف انك لن تستطيعي تصديق هذا، يا أمي. ولكن السبب في أنني تحطمت حين وفاة سارة لم يكن سببه اهتمامي بها. وإنما لشعوري في أنني الملوم لما حدث لها.

قالت: «ولكن هذا شيء مضحك.»

لوى شفتيه، ثم قال: «إنني مسرور لاتفاقنا على أمر ما.»

قالت: «كلا، وإنما أعني أن هذا غير صحيح. لقد رأيتك يا ريف. لقد رأيت تصرفاتك أثناء الجنازة. لقد كنت منهاراً! فلا تبخس من مشاعرك تلك الآن. فقط لكي تبرّر لنفسك... هذه الرغبة التي تشعر بها نحو هذه المرأة جاكوبسن.»

نظر إليها بثبات وهو يقول: «هذا غير صحيح، فأنا أحب إيزوبيل، يا أمي وهذا شيء ربما كان خارجاً عن إرادتي، وربما ما كنت أريده ولكن هذا هو الواقع.»

قالت: «إذن، ماذا تنوي أن تفعل؟»

رفع كتفيه قائلاً: «إنني... ربما لن أفعل شيئاً...»

قالت تستغل هذه الفرصة: «إن الأمر ليس جدياً، إذن. آه يا ريف. إنني أعلم أنك منجذب إليها. رأيت ذلك ليلة دعوتها إلى العشاء. ولكن هذا ليس حباً صدقني. إنني أعرف هذا، وإذا شعرت بذلك مرة فستدرك أن الأمر لم يكن سوى افتتان مؤقت.»

قال: «ولكنني أحبها.»

قالت: «آه يا ريف. لا أظنك تعني أنك تفكر في الزواج منها.»

قال بجفاء: «حسناً، لقد كنت دوماً تطلبين مني أن أسترد السيطرة على نفسي، يا أمي.»

هزت رأسها ذاهلة، ثم قالت بمرارة: «أظنها تجد الأمور مسلّية للغاية. إنني متأكدة من استغفالها لنا جميعاً في النهاية.»

قال متهكماً بمرارة: «لا تنتظري ذلك، إذ بالعكس مما تتوقعين، فإن إيزوبيل ترفض التحدث إليّ. لقد حاولت أن أخبرها بشعوري نحوها، ولكنها رفضت حتى الإستماع إليّ.»

قطبت حاجبيها قائلة: «وهل هذا هو السبب في هذه الوحدة والاعتزال؟»

عاد يغوص في مقعده وهو يقول: «ما دام هذا هو السبب، فليس لك أن تقلقي الآن. والآن إذا لم يكن لديك مانع، أنا مشغول.»

قالت: «آه يا ريف. لماذا تعاملني بهذا الشكل؟ لا بأس. ربما لم أكن متفهمة، كما كان ينبغي في الماضي. ولكن كل ما أريده هو سعادتك.»

نظر إليها وقد ارتسمت على ملامحه خيبة الأمل، والارتياب الصريح في عينيه، ثم قال: «أحقاً؟ لا تقلقي يا أمي، فأنا لا ألومك لأيّ شيء.»

كان الوصول إلى قصر إنفركالدي بالمواصلات العامة، يستلزم سيراً على الأقدام قرابة الثلاثة أميال. ولم يكن لدى إيزوبيل سيارة، وكان بإمكانها استئجار سيارة السيد ماكروجر، ولكنها لم تشأ ذلك، إذ يكفي السمعة التي اكتسبتها هي وابنتها، في القرية.

وبدت أسوار القصر أمامها شامخة مهيبة، وكان الثلج قد تساقط قبل فترة، وكانت قد حذرت ابنتها مما سيحدث لو

www.liilas.com

أنها اجتازت خطوة واحدة خارج العتبة. ولكن كوري بعد أن تلقت تعنيفاً بالغاً من جدتها، قنعت بالجلوس على الأريكة، شاعرة بالارتياح من الانتهاء من تلك المحادثة، مسرورة لأنها لم تأت شخصياً.

لقد أفرغت الجدّة عبر الهاتف، كل سخطها وغضبها دون أن يشعرها بالارتياح كون كوري وصلت بالسلامة، وأنها الآن في أمان. لقد أخذت تشكو إهمال الفتاة وعدم ترتيبها، ثم سألت متى تنوي إيزوبيل أن تعيد إليها ثمن تذكرة الطائرة الذي سحبته كوري من حسابها، وقد وعدتها إيزوبيل بإعادة المبلغ إلى المصرف في نفس ذلك اليوم. وكانت إيزوبيل متأكدة من أن كل هذا سيمضي بسلام، فإنه من غير المحتمل أن تتخلى الجدة عن حفيدتها بهذه السهولة. ومن يدري، فقد تعودان إلى لندن، حتى ولو مزقها الشعور بأن ذلك سيفصلها عن ريف خمسمائة ميل.

كان لوكاس يعمل أمام الكاراج، وكان يغسل سيارة تشبه تلك التي أحضر بها ريف كوري من فورت ويليام ذلك الصباح. وربما كانت هي نفسها، كما أخذت إيزوبيل تفكر وهي تشعر بالارتياح لرؤية وجه ودود. ربما كان لوكاس يعلم مكان ريف. كانت تريد فقط أن تقدم شكرها له، واعتذارها ثم ترحل.

قالت له وهي تقف بجانبه، عالمة بأن ليس في شكلها أية جاذبية وهي مرتدية بنطال الجينز الباهت اللون هذا: «مرحباً، هل... ريف موجود في المنزل؟»

نظر إليها فاغراً فاهه ليقول أخيراً وهو يمسح يديه ببنطاله: «وهل هناك مكان غيره؟ هل تريدين رؤيته؟»

أومأت قائلة: «نعم، إذا كان هذا ممكناً. هل بإمكانك أن تخبره بأنني هنا؟ لا أريد أن أزعج من في المنزل.»

أظهرت ابتسامته الواسعة أنه يعلم بالضبط من تعني بقولها هذا. ولكنه قال وهو يومىء بيده إلى الاصطبل: «أخبريه بنفسك. إنه هناك مع السيد كولين. إنه يفكر في أن يعطي أحد الأفراس لجيم.»

قالت وقد جف فمها: «آه، حسناً. ربما...» ولكن في هذه اللحظة، خرج ثلاثة أشخاص من الاصطبلات. أحدهما لا بد أنه شقيق ريف، عرفته من شبهه بإبنه. وكذلك جيم كان معهما، والذي كان يبدو مبتهجاً بما ناله. ولكن ريف هو الذي جذب نظراتها، ريف الذي مزّق قلبها، ريف الذي بدا أكبر من سنه، ومرهقاً كما سبق وقالت كوري. ريف الذي امتلك قلبها. وسيبقى دوماً هو المالك لسوء حظها.

ورآها هو على الفور. وسرعان ما اعتذر من الآخرين ثم اجتاز الباحة نحوها بخطوات واسعة.

وقال محاولاً تمالك نفسه: «إيزوبيل... هل رأيت كوري؟ لم يصبها ضرر، أليس كذلك؟»

ووجدت إيزوبيل صعوبة في النطق بأية كلمة. بدا وكأنه مرّ وقت طويل منذ رأته لآخر مرة.

قالت له أخيراً وهي تتجنب النظر في تلك العينين اللتين كانتا تسببان لها الألم: «كلا، إنها بخير.» ووقع نظرها على جيم وأبيه وعلمت هي أن شقيق ريف سرعان ما سيذهب لإخبار أمهما بحضورها. وتابعت تقول: «لقد جئت فقط لأشكرك لأجل... لأجل إحضارها.»

ضاقت عينا ريف ونظر إلى لوكاس بفروغ صبر، ثم قال

www.liilas.com

لها: «لا يمكننا تبادل الحديث هنا. تعالي ندخل المنزل. إن كولين وجيم ذاهبان الآن.»

قالت: «كلا.» ذلك أن معرفة الكونتيسة بوجودها هنا شيء، ومقابلتها لها شيء آخر. وتابعت تقول: «سنقول كل شيء هنا، كما أن ليس لديّ الكثير لأقوله.»

نظر ريف متردداً إلى أخيه وابن أخيه اللذين كانا يتابعان سيرهما متباطئين، وخاصة جيم، نحو القصر ثم قال: «فلنذهب إلى الاصطبلات. هيا بنا، فالمكان هناك دافىء، انتبه يا لوكاس لعدم ازعاجنا.»

ورافقته إلى الاصطبلات، شاعرة بنظرات لوكاس تخترق ظهرها. ما الذي سيظنه بهما؟ وكذاك أخوه وابنه؟ ولكن، ما الذي يهمها من ذلك كله فهي لن تمكث طويلاً.

كانت الجياد تطل برؤوسها من مرابطها، ودسّ واحد منها، أنفه في كم ريف فابتسم له هذا وأخرج من جيبه تفاحة قدمها إليه على راحته، وهو يقول: «إنها الفرس مونلايت.» فتقدمت إيزوبيل تبتسم للفرس وتربت على أنفه، وتابع هو قائلاً: «كانت فرس سارة، ولكنني أعطيتها لجيم. فهي لا تنال الكفاية من الرياضة، بينما هو توّاق إلى أن يستبدلها بحصانه الصغير الحجم.»

قالت: «آه.» وكان ذكره اسم زوجته الراحلة أشبه بالماء البارد ينصب فوقها. وكانت قد نسيتها عدة لحظات، بل ونسيت الغرض من قدومها، فقد كان يكفيها أنها مع ريف. ولكن اسم سارة غيّر هذا كله.

سألها: «هل أردت أن تكلميني عن كوري؟»

أجابت وهي تراه يتبعها: «لقد... جئت لكي أعتذر. كنت

أنا مخطئة وكان الحق معك. فقد عادت كوري كما سبق وقلت أنت إنها ستفعل. ولكنك طبعاً كنت تعلم ذلك. وإنني آسفة لإزعاجها لك هذا الصباح بالإتصال بك.» وسكتت لحظة ثم عادت تقول: «وأيضاً لما عسى أن تكون قد ألقته عليك من أسئلة محرجة.»

هزّ كتفيه قائلاً: «هذا لم يهمني.»

قالت: «لكنه أهمني أنا. كان عليها أن تتصل بي.»

قال: «ربما كانت خائفة من أن تضعيها في أول قطار عائد إلى لندن، فهي لم يكن في إمكانها الشكوى. إذ لا بد من أنك حينذاك، ستكونين في منتهى السخط.»

قالت: «ما كنت لأفعل ذلك.»

قال: «حسناً، على كل حال، فقد فكرت هي في أنني سأكون سنداً لها، إذ لم تكن تعلم أننا لا يرى الواحد منا الآخر. لم تكن تعلم أن عجزي عن الدفاع عنها أمامك لا يقل عن عجزها هي.»

سحبت إيزوبيل نفساً عميقاً، ثم قالت: «نعم، لقد سبق وأخبرتني هي بذلك.»

بان الاستسلام في عينيه حين سمع كلماتها هذه، وقال: «أحقاً؟ حسناً، أظن هذا قد أنهى الموضوع، أليس كذلك. لقد استعدت ابنتك الآن، وعاد إليك استقرارك الذهني. وآمل أن تستقرّ هي الآن.» وتردّد قليلاً ثم عاد يقول: «إن بإمكاني أن أتحدث إلى مدير مدرستها إذا كنت تظنين هذا ينفعها.»

قالت: «كلا.»

قطب حاجبيه قائلاً: «كما تشائين.»

قالت وقد انتابها خوف مفاجىء: «كلا... أعني أنني

www.liilas.com

أشكر لك هذا العرض، ولكن... ولكن لا أظن أن كوري ستعود إلى ستراتفور.»

قال دون وعي: «كلا؟» ولكنه ما لبث أن توقف وكأنما تذكر أن ليس له الحق في أن يسألها إيضاحاً. غير أنه عاد يسألها: «وما الذي ستفعله إذن؟»

فلم تعد تستطيع تحمل نظراته الثاقبة أكثر من ذلك فخفضت بصرها إلى الأرض ومضت تعبث بقدمها بقش كان ملقى على الأرض الحجرية، ثم قالت: «إن ما سأفعله أنا هو المهم. فأنا أفكر في أن أعود إلى لندن.»

وساد الصمت بعد ذلك. وكان صمتاً طويلاً لم تسمع إيزوبيل أثناءه سوى دقات قلبها التي كانت من الارتفاع بحيث تأكدت من أن ريف لا بد سمعها هو الآخر.

وعندما تحرك أخيراً، كادت تقفز مجفلة، ولكنه لم يفعل سوى أن استند بظهره إلى الجدار. ونظرت إلى رأسه المنحني وكتفيه المنخفضتين، وتلوى قلبها ألماً.

قالت برقة وقد ساورها الخوف من أن يكون ألمّ به أمر سيىء لا يريد أن يخبرها به: «ريف؟» فأدار وجهه ينظر إليها.

قال لها بخشونة: «لا تذهبي. أرجوك ألاّ تذهبي. إن بإمكاني رؤيتك ساعة أشاء، ولكن إذا أنت رحلت إلى لندن فلا أدري ما الذي سأفعل حينذاك.»

«وهل هذا تهديد؟»

قال وعلى شفتيه ابتسامة آسية: «آه، كلا بالطبع. ولماذا أهدّدك وأنا أعلم أنك لا تريدين مني شيئاً؟»

قالت في سرّها (ما عداك أنت) ولكنها ردت عليه قائلة: «وما الذي تعنيه إذن؟»

قال وهو يطلق ضحكة لا بهجة فيها: «لا أدري. أظن أن باستطاعتي أن أفعل ما تريده كلير مني فأتنازل عن حقي في اللقب لكولين. فهي متشوقة إلى أن تكون الكونتيسة أوف إنفركالدي وبهذا يصبح جيم وريث والده. فالصبي سيرث اللقب ذات يوم على كل حال. وأنا متأكد من أن أمي تعتقد أن كولين يستحق هذا الوضع أكثر مني.»

قالت: «ولكن لماذا تفعل كل هذا؟»

لوى شفتيه قائلاً: «ربما أريد أن أكون حراً أيضاً، من يعلم؟ ربما أتبعك. إنني لم أحب لندن قط، ولكن ذلك كان قبل أن...»

قالت بهلع: «ولكنك لن تستطيع أن تفعل هذا. لا يهمني ما تقول أو ما تريده أمك، فإنفركالدي هي حقك، وليس بإمكانك أن تتخلى عنها... ثم وفي كل الحالات لماذا يكون جيم هو وريثك؟ يجب أن يكون لك ولد من صلبك.»

قال بفتور: «ولكن لن يكون لي ذلك. إذا أنت رحلت بعيداً، فستموت هذه الإمكانية.»

ازدردت ريقها قائلة: «لماذا؟»

نظر إليها بطرف عينه، ثم سألها بشيء من المرارة: «وما الذي تظنينه السبب؟ هل تتظاهرين بالغباء؟ أم انك تريدين رؤيتي أزحف على الأرض؟ حسناً، سأزحف إذن إذا كان عليّ ذلك فأنا أريدك أن تحتاجي إليّ. أردتك أن تأتي إليّ وتخبريني أن ليس باستطاعتك أن تجيئي بطفل إلى هذا العالم وحدك. أردتك أن ترغبي بي على الأقل بنصف القوة التي أرغبك أنا بها.»

ولم تستطع إيزوبيل أن تصدّق ذلك. وقالت متلعثمة: «إنني... كنت أظنك ما زلت تحب سارة. آه يا ريف، لا تنظر إليّ

www.liilas.com

هكذا. إنني... إنني أحبك. وأنا أريد فقط أن أدخل السرور إلى نفسك. فإذا... إذا كنت تريد طفلاً، فلا مانع لديّ من...»

«أوه يا إيزوبيل ألا تدركين أنك إذا أصبحت لي فأنا لا أريد أي شيء آخر؟ فأنت كل ما أريد. إنك المرأة الوحيدة التي احبها.»

• • •

«هذا لأنك قلت إنك تريد مني طفلاً، أليس كذلك؟» وكانت إيزوبيل تقول ذلك لزوجها بابتسامة مكتومة وهي تنظر إليه يجرّ نفسه من السرير مستجيباً لبكاء طفلهما المفعم بالصحة، والذي يرقد في غرفة الحضانة. وقالت: «هل رأيت طفلاً من قبل بمثل شراهته؟»

عاد ريف يلتف بالأغطية، ومضى يرقب طفله وهو يرضع الحليب. إنهما يعيشان معاً منذ عام تقريباً، وما زال هو لا يستطيع تصديق أنها الآن زوجته، وأم طفله والمرأة التي يزداد حبه لها كل يوم.

قال لها: «إلى متى سيبقى بحاجة إلى أن يرضع في مثل هذه الساعة؟»

فضحكت وهي تقول: «لا يمكن أن تغار من إبنك.»

فقال: «بلى، كلا. شكراً لأن كوري عادت إلى المدرسة. إذ على الأقل، سنبقى وحدنا عدة أسابيع قبل الأعياد.»

وعندما رآها تنهي إرضاع الطفل، ارتسمت على شفته ابتسامة كسول، وانقلب على ظهره وأغمض عينيه متصنعاً النعاس وهو يقول: «كم أنا متعب. إنك ستأخذين دايفيد الصغير إلى سريره بنفسك، أليس كذلك؟»

«بل أنت ستفعل ذلك. ألا ترى النعاس يثقل جفنيه؟ خذه إلى سريره قبل أن يستيقظ.» وناولته إياه وهي تتابع قائلة: «ألا ترى كم هو جميل؟»

لفّ ريف طفله وأخذه إلى سريره طائعاً وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل والقصر غارقاً في الظلام. وما لبث أن عاد إليها، وهو يستعرض ما مرّ بهما من أحداث. لقد استقرت حياتهما الآن.

وكذلك كوري قد استقرت، بمساعدة جيم في المدرسة نفسها التي يتعلم هو فيها. وقد جلب إلى نفسيهما الراحة والدهشة أن وجداها تتقدم في العلوم بسرعة. ولم يتأكدا من كون السبب هو ربما في أنها كانت تريد أن تؤثر بذلك على جيم، ما دام الواقع هو أنها كانت جادة حقاً في دراستها. حتى جدّتها أثّر فيها عزم كوري على مواصلة تعليمها الجامعي.

وعندما أوشك النعاس أن يداعب أجفانهما، قالت له: «أتظن أن أمك ستمضي العيد معنا هذه السنة؟»

تنهد بضجر وهو يقول: «وهل هذا مهم؟ سنتحدث عن هذا غداً.»

قالت: «ولكنك قلت انها ستأتي.»

قال: «إنها هي التي قالت بأنها ستأتي. ليس هناك ما يجعلها تبقى بعيدة عنا، يا حبيبتي، خصوصاً الآن بعد أن أصبح لديها حفيد جديد تتباهى به أمام الآخرين.»

ولكن بقي الشك يراود إيزوبيل. ذلك أن الكونتيسة بعد انتهاء العرس مباشرة، قامت برحلة طويلة لزيارة أختها في نيوزيلاند، ولم تعد إلا بعد أن علمت أن كنتها ستضع طفلها

www.liilas.com

بعد ثلاثة أشهر. ومنذ ذلك الحين ساد بينها وبين إيزوبيل نوع من التسامح. ومع أن إيزوبيل كانت تشك في أنهما ستصبحان يوماً صديقتين، إلا أنهما كانتا تشتركان في شيء واحد، وهو الحب والإعجاب بالطفل دايفيد.

وعاد ريف يؤكد لها، وقد أدرك أهمية هذا الأمر بالنسبة إليها، فراح يقول: «إنها ستكون هنا... ولا تنسي أن السيدة جاكوبسن ستكون هنا أيضاً. إنني متشوّق لرؤية هاتين المرأتين وهما معاً، وأشعر بأنهما ستتلاءمان تماماً.»

انفجرت إيزوبيل ضاحكة وهي تقول: «آه، نعم. لقد نسيت روث، ولكنني متأكدة من أنها لن تسمح لأحد بأن يرهبها. أتتذكر أثناء عرسنا؟ ظننت أن أمك كانت على وشك الموت عندما طلبت روث سمكاً مدخناً بدلاً من فطائر الباتيه.»

قال: «أذكر ذلك.»

قالت: «أتظن أن كلير ستتسامح معي ان سرقت منها أحلامها؟»

أجاب: «لا يهمني مطلقاً ما تفكر فيه كلير.»

أغمض عينيه وهو يفكر، كم هو محظوظ. ذلك انه لم يحصل فقط على المرأة الوحيدة التي أحبها، حقاً، وإنما على طفل غالٍ جعل حياتهما غاية في السعادة.

تمـــت